

29723
ح

جَانِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَخْسِبُوا

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	29723 ح
رقم التسجيل	٣٣١٩٣

تأليف

عبد الحميد كشك

التواب والعقاب
الغاية من ما يؤمن
الحياة الآخرة
الجنة والنار

الكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سولنا الحسين



﴿مقدمة الكتاب﴾

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين،
وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا محمداً رسول الله.

أما بعد...

فقد كان فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يقول:
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا فإن مما
يهون عليكم الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض
الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(١).

رحمك الله يا أمير المؤمنين فانت الرجل الذى ضرب الله الحق على
قلبه ولسانه، يا من كنت تخاف من الله تعالى خوف من يعتقد أن النار
لم تخلق إلا له وحده فمن خاف سلم، لقد غصت فى معانى آيات
الحساب حتى بلغت إلى أعماق الأعماق وجرى دمك على خديك
وخفق قلبك وجللاً وخوفاً من لقاء الله تعالى، وفهمت أن لقاء الله حق،
واعتقدت أن البعث حق وأن الساعة حق وأن الجنة حق وأن النار حق،
فصمت عن الدنيا وأفطرت على الموت وأعددت الزاد لليلة صبحها يوم
القيامة.

(١) سورة الحاقة الآية ١٨.

يا رافعاً راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيراً عن مُحِبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يُشَقِّقِها
إن جاع فى شدة قوم شَرِكْتَهُمْ
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة - والدنيا بقبضته -
فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت روجه الحلوى فقال لها:
من أين لى ثمن الحلوى فأشترىها؟
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومى لبیت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما عُدَّتْ
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
وراعَ صاحبَ كسرى أن رأى عُمراً
بين الرعية عُطلاً وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يلبسها
وعهده بملوك الفرس أن لها
سُوراً من الجند والأحراس يَحْمِيها

رآه مستغرِّقاً في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها
وقال قَوْلَةً حَقُّ أصبحت مثلاً
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويهـا
أمنت لما أقمت العدل بينهم
فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِيرِ العين هَانِيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها
بنعمة الله حصناً من أعاديها

أيها الأخ المسلم

لا تنس ما بعد الموت، فنسيانه ضلال مبين، فاذكر اثنين وانس
اثنين، ولا تنهر اثنين واحفظ اثنين ولا تأمن اثنين على اثنين.
اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك،
ولا تنهر أمك ولا أباك، واحفظ صمتك وأوقات فراغك، ولا تأمن امرأة
على سر، ولا تأمن رجلاً على امرأة.

واعمل عقلك وقلبك وفكرك في فهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لَا
يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(١).

(١) سورة الحشر الآيات [١٨ : ٢٠].

فصل

فيما يرقق القلب ويملؤه خشوعاً وخشية لله تعالى

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليماً يليقان بمقام أمير الأنبياء والمرسلين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبیبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين. صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين، وعلى آله وصحابه الغر الميامين، وارحم اللهم مشايخنا، ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين.

الحمد لله الذي لا تدركه الأهوام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ولا تناله الآفات ولا المنون، الذي أنزل الكتاب المكنون وأرسل السحاب الهتون وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون وخلق الإنسان من صلصال من حمإ مسنون وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. تكونت بقدرته الأشياء وتوالت برحمته الآلاء وانشقت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء فيرحم من عباده من يشاء وإليه تقلبون. الشافي صدور أولى الألباب النافي باتقان مصنوعاته كل شك وارتياب ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشرر تنتشرون﴾^(١).

أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات، وقدر الأشياء من ماضٍ وآتٍ وغفر بالمتاب سائر الخطيئات ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾^(٢) مبدع الدهور بالأحداث ومصور الذكور والإناث وباعث من في القبور فينهضون بالانبعاث ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾^(٣).

(٢) سورة الشورى الآية ٢٥.

(١) سورة الروم الآية ٢٠.

(٣) سورة يس الآية ٥١.

﴿وجعل الشمس سراجاً﴾^(١) ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾^(٢) . ﴿ولو نشاء لجعلناه أجاجاً فلو لا تشكرون﴾^(٣) .

الكريم الشكور الرحيم الغفور المنزه فى أقضيته عن أن يظلم أو يجور ﴿الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾^(٤) . مالك الأشياء بالطول والعرض وقبل من عباده السنن والفرض وإليه المآب والعرض . ﴿وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون﴾^(٥) .

أتقن خلق الإنسان وأبدع وركب فيه حركاته وأودع ﴿وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾^(٦) . أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه ، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ونور وجوه الموحدين فهى مسفرة ضاحكة ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾^(٧) .

أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض ، وأنزل وأسبغ بفضله الآلاء ، وحول وقضى على خلقه بما شاء وأجزل . ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾^(٨) . أتقن صنعة خلق العالم وأحكم وجاد عليهم بفائض رزقه ، وأنعم ويدرك بهم السر المكنون المبهم ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾^(٩) . رب المشرقين ورب المغربين ومنور الكون بالنيرين ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾^(١٠) أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلاً ونوالاً وأعد لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً وحجبهم

-
- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة نوح الآية ١٦ . | (٢) سورة النبأ الآية ١٤ . |
| (٣) سورة الواقعة الآية ٧٠ . | (٤) سورة الأنعام الآية ١ . |
| (٥) سورة الروم الآية ٢٦ . | (٦) سورة الأنعام الآية ٩٨ . |
| (٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٣ . | (٨) سورة الأنبياء الآية ٢٣ . |
| (٩) سورة النحل الآية ٢٣ . | (١٠) سورة الداريات الآية ٤٩ . |

عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيها ولا مثالا ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(١).

ليس كمثله شيء ولا لنشر فضله طي ولا يعتري المهتدي إلى سبيله في . . . ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾^(٢) أحمده حمدا يتقرب به المتقربون .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي العربي الأمين المأمون . . .
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .
وبعد : فهذه ذكرى وعبر ، والذكرى تنفع المؤمنين .

فصل

إياك والجن وكن شجاعاً واعلم بأنه لا يملك الروح والرزق إلا الله تعالى

وعن هذا الداء الخطير وهو الجن نقتطف كلمات للإمام الشيخ محمد عبده :

يقول رحمه الله تعالى : ما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزههم إليه الميل الغريزي خصوصاً وإن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعدده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات . . . وتعترف بيوم العرض الأكبر

(١) سورة النحل الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآية ١٩ .

يوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (١) .

ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح ؟

ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟

إذا ردت المسببات إلى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها : وجدنا لهذا علة هى أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل جلل وهو (الجن) . . «وعن أضرار الجن» قال : «الجن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها» .

هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت بروجهم وهو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين .

يسهل على النفوس احتمال المذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل وبالجلد ويوطئ الظهور الجاثية لأحمال المصاعب أثقال مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام .

والجن : يلبس النفس عاراً عند كل زكية وهمة عالية .

والجن : مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية . وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت .

والموت : مآل كل حى ومصير كل ذى روح .

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال . . جل

(١) سورة الزلزلة الآية [٧ ، ٨] .

شأنه : ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾^(١). يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعدّه الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله .

نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة وهو الشجاعة والإقدام . سبباً فى الفناء يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حقّاً، ويتوهم أن فى كل خطوة خطراً مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين . غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمة .

الجبين : فخر تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتنل به نفوس الناس ، وتلتهم به الأمم والشعوب . هو حباله الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدّهم عن سبيله .

هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه ولا فساد إلا وهو جزئومته ولا كفر إلا وهو باعته وموجهه . ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة !

والجبين : هو الذى يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب كما أنه هو الذى ييسط أيدى الأوفياء لدنيئة الارتشاء ، وأن الخوف من الفقر يرجع فى حقيقته إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن .

والجبين : عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية . خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء أعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .

واجب المسلمين

وعن واجب المسلمين قال: (ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه.

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت : علامة الإيمان، وامتنحن به الله قلوب المعاندين يقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾^(١).

الإقدام فى سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته، أوسمة يتسم بها المؤمنون. لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده. لا يظن أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجن فى قلب واحد.

كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام، وأن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه. المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء، ولا يفيد التباطؤ عن الفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه.

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنين إما أن يعيش سيداً عزيزاً وإما أن يموت مقرباً سعيداً. وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالأكرمين والملائكة المقربين.

(١) سورة النساء الآية ٧٧.

الجبين والإيمان

من يتوهم أنه يجمع بين (الجبين) وبين الإيمان بما جاء به حبيبنا محمد ﷺ فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه، بل هو ليس من الإيمان فى شىء. كل آية من القرآن تشهد على (الجبان) بكذبه فى دعوى الإيمان.

لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء (العلماء) أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك.

واجب العلماء

وأغلب الظن عندى أن العلماء إذا قاموا بهذه الفريضة فريضة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكافة يتبين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى نفوس المؤمن لرأينا لذلك أثراً فى هذه الملة السمحة يبقى ذكره أبد الدهر لشهدنا له يوماً تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد : الله أكبر.

فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد : لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه وبشئ يسير من التذكير فينهضوا نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

فصل

مرض الرسول ﷺ ووفاته

ذكر كتاب السيرة أن رسول الله ﷺ بعد أن عاد من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش عروم إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين (منهم : أبو بكر الصديق، وعمر رضى الله عنهما) وأمر على الجيش (أسامة بن زيد بن حارثة) وكان أسامة يومئذ حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من سنه،

والنبي ﷺ إنما أراد بتعيين (أسامة) أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعة (مؤتة) وأن يجعل له من فخار النصر ما يجزى به ذلك الاستشهاد وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهمة والحمية ويعودهم الاطلاع بأعباء أجسام التبعات، وخرج (أسامة) والجيش معه إلى (الجرف) يتجهزون للسفر إلى (فلسطين) وبينما هم كذلك إذ حال مرض الرسول ﷺ ثم اشتداد المرض به دون مسيرهم.

وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض الرسول ﷺ دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ ونحن نقول : إن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أيامًا طويلة ليست بالأمر الهين، ولم يكن يسهل على المسلمين والنبي أحب إليهم من أنفسهم أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم يعلمون ما وراء هذا المرض، ثم إنهم لم يعرفوا قط - من قبل - أنه شكا مرضًا ذا بال. إذ أن حياته وتعاليمه كانت تنأى به عن المرض فهذا الزهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة في الملبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء والسواك الدائم (وكان يحبه ﷺ ويحرص عليه حتى ليقول : إنه لولا خوفه أن يشق على قومه لفرض عليهم السواك في اليوم خمس مرات).

هذا النشاط الدائم - نشاط العبادة - من ناحية، ونشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد في كل شيء وفي الملذات قبل كل شيء. وهذا السمو عن عبث الأهواء. وهذه الرفعة النفسية التي لا تدانيها رفعة. وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون في خير صور الحياة وأدق أسرار الكون.

هذا كله يجنب صاحبه المرض، ويجعل الصحة عظيم حظه. فإذا كان سليم التكوين، قوى الخلق - كما كان رسول الله ﷺ - جفاء المرض ولم يعرف إليه سبيلًا. فإذا مرض كان طبيعيًا أن يخاف محبوه وأصحابه وكان طبيعيًا أن

يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال ثلاث وعشرين سنة متتابعة، لاقى فيها من الشدائد ما تنوء الجبال عن حمله فى شتى سبل الحياة. وأى موقف أشد من موقفه (يوم أحد) . . حين ولى المسلمون وسار وهو يصعد الجبل ورجال قريش يشتدون فى تتبعه ويرمون، حتى كسرت رباعيته .

وأى موقف أشد هولاً من موقعة (يوم حنين) حين ولى المسلمون فى عماية الصبح مولية الأدبار وهو ينادى فى المسلمين (إلى أين . . ؟ إلى أين . . ؟ إلى . . . إلى . . .) حتى عادوا وحتى انتصروا .
وأى مجهود أشق من مجهود الرسالة والوحى ، وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسر الكون والملا الأعلى ؟ ﴿يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً﴾ (١) .

وهذا المجهود فى تلقى أوامر الله والذى روى بسببه عن النبى ﷺ أنه قال : (شيبتنى هود وأخواتها) . . قيل : وما شيبك فيهما قال : قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير﴾ (٢) .

رأى أصحاب رسول الله ﷺ هذا كله ، ورأوه يحمل العبء صلباً قوياً ، لا يعرف المرض إليه طريقاً فإذا مرض بعد ذلك : فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم (بالحرف) إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله ﷺ .
وهذا حادث وقع جعلهم أشد خوفاً : فقد استيقظ رسول الله ﷺ أول ما بدأ يشكو وطال أرقه وحدثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام

(١) سورة المزمل الآيات [٦: ١] .

(٢) سورة هود الآية ١١٢ .

الرقيقة النسيم فيما حول المدينة . . وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه (أبا مويهبة) .

أفتدري أين ذهب؟

ذهب إلى (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها: (هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى).

وقد حدث «أبو مويهبة» أن النبي ﷺ قال له أول ما بلغنا (بقيع الغرقد): (إني أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع . . فانطلق) فلما استغفر لهم وأن له أن يؤوب: أقبل على «أبي مويهبة» فقال له: (يا أبا مويهبة: إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك بين لقاء ربي والجنة).

قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

قال سيدنا رسول الله ﷺ: (لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة).

أصبح رسول الله ﷺ في الغداة، ومر بعائشة -رضى الله عنها- فوجدها تشكو صداعاً في رأسها وتقول: وارأساه! فقال لها: وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة . . وارأساه!

لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذي يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأرواجه من تلطف .

وكررت عائشة - -رضى الله عنها- - الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو به فقال لها: (وما لو مت قبلي، فقممت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)؟ .

وأثارت هذه الملاحظة حب الحياة في نفس عائشة -رضى الله عنها-

فأجابت: (وليكن ذلك حظ غيرى! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك: لقد رجعت إلى بيتك فأعرست فيه ببعض نسائك). وتبسم النبي ﷺ.

فلما سكن عنه الألم بعض الشيء: قام بتفقد حال أهله، لكن الألم جعل يعاوده، فتزداد به شدته حتى إذا كان فى بيت أم المؤمنين (ميمونة بنت الحارث) -رضى الله عنها- لم يطق، فغالبه الألم ورأى نفسه فى حاجة إلى قمريض.

هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنه بعد أن رأى حاله أن يمرض فى بيت عائشة وأذن له أزواجه فى الانتقال.. فخرج عاصباً رأسه يعتمد فى مسيرته على (على بن أبى طالب) -كرم الله وجهه- وعلى عمه (العباس) وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت (عائشة) -رضى الله عنها- وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه حتى لكان يشعر كأن به منها لهباً.

لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل به الحمى من أن يمشى إلى المسجد ليصلى بالناس. وظل على هذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم.

ولما اشتدت عليه الحمى أمر أزواجه أن يصبين عليه بعض قرب الماء.. ففعلن ذلك ثم قام فلبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد وجلس على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على أصحاب (أحد) واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال: (أيها الناس أنفذوا بعث «أسامة» فلعمري لئن قلت فى إمارته لقد قلت فى إماره أبيه من قبله وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها). ثم سكت هنيهة خيم الصمت على الناس أثنائها ثم عاد إلى الحديث فقال: (إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده.. فاختر ما عند الله)!!.

وسكت الرسول ﷺ من جديد، والناس كأنما على رؤوسهم الطير.. ولكن أبا بكر -رضى الله عنه- أدرك أن النبى ﷺ إنما يعنى

بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لركة وجدانه وعظيم صداقته لرسول الله ﷺ أن يمسك عن البكاء فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا! .

وخشى رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبى بكر إلى الناس فأشار إليه قائلاً: (على رسلك!!) ثم قال: (إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: (يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزدون والأنصار على هيتها لا تزيد وإن كانوا عيتى «يعنى خاصتى وموضع سرى» التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضى الله عنها. أى مجهود بذل فى هذا اليوم؟ . .

إنه الرسول الذى يشغله أكبر الشواغل. جيش «أسامة» . . ومصير الأنصار من بعده. . ومصير هذه الأمة التى ربط الإسلام بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس إماماً كعادته فإذا هو لا يقدر إذ ذاك قال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس). قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال رسول الله ﷺ: (مروه فليصل بالناس).

فكررت عائشة -رضى الله عنها- وقالت: فلو أمرت عمر؟ فصاح رسول الله ﷺ والمرض يهزه: إنكن صواحب يوسف: مروه فليصل بالناس، وقام أبو بكر فصلى بالناس إماماً!! .

وبلغت بالرسول ﷺ شدة المرض حداً ألمه ذلك أن الحمى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمى المضنية .

وكانت ابنته فاطمة تعود كل يوم وكان يحبها . . ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه . . . لذلك كانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه!! فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ: دخلت عليه فقبلته فقال: (مرحباً يا ابنتى . .) ثم أجلسها إلى جانبه وأسر إليها حديثاً فبكت ثم أسر إليها حديثاً آخر فضحكت . . فسألها عائشة فى ذلك، فقالت: ما كنت أفشى سر رسول الله ﷺ . . فلما مات ذكرت أنه أسر إليها أنه سيقبض فى مرضه هذا فبكت، ثم أسر إليها أنها أول أهله يلحقه فضحكت!! . وكانوا لاشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناءً بارداً من ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه، ويمسح بها على وجهه ﷺ .

وكانت الحمى تصل به حتى يغشى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب . . حتى قالت فاطمة يوماً وقد هز الألم نفسها لشدة ألم أبيها . . واكرب أبتاه !

فقال: (لا كرب على أبىك بعد اليوم)!

يريد أنه سينتقل من هذا العالم: عالم الأسى والألم إلى الرفيق الأعلى من الجنة .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي ﷺ حتى هبط «أسامة» وهبط الناس معه من (الجرف) إلى المدينة ودخل أسامة على النبي ﷺ فى بيت عائشة -رضى الله عنها- فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم، فلما أبصر أسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له .

المال الذى تركه النبي ﷺ: وما أثر عنه ﷺ أنه كان فى بيته سبعة

دنائير أول ما اشتد به المرض خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده . . فأمر أهله أن يتصدقوا بها . . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته واطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره .

فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة : إنها ما تزال عندها فطلب إليها أن تحضرها . ووضعها فى كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه !!؟ ثم تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين . وقضى رسول الله ﷺ ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى .

وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على (على بن أبى طالب) و(الفضل بن العباس) -رضى الله عنهما- .

وكان أبو بكر ساعئذ يصلى بالناس . فلما رأى المسلمون النبى ﷺ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم : كادوا يفتنون فرحاً به فتفرجوا (أى وسعوا) . . فأشار إليهم أن يشبثوا على صلاتهم . وسر رسول الله ﷺ بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة .

وأحس أبو بكر -رضى الله عنه- بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه . فدفعه الرسول ﷺ وقال له : (صل بالناس) وجلس هو إلى جنب أبى بكر -رضى الله عنه- فصلى قاعداً عن يمينه .

فلما فرغ من صلاته : أقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال : (أيها الناس : سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمسكون على بشىء : إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن لعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد) .

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبى

ﷺ حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذن في مسيرة الجيش إلى الشام حتى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم (بنت خارجة) يعني زوجته، أفأتيها؟ فأذن له النبي ﷺ في ذلك. وانطلق أبو بكر إلى السنح (مكان بأطراف المدينة) حيث تقيم زوجته وانصرف عمر وعلى لشئونهما، وتفرق المسلمون، وكلهم سعيد مستبشر بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل لهم من أخبار النبي ﷺ ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه.

وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين الذين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف بينما عائشة تنظر إلى هذا الرجل العظيم الذي يمتلئ قلبها إكباراً له وإجلالاً وقد ملكها الإشفاق لترد إليه القوة والحياة!!.

لكن خروج النبي ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصحو الذي يسبق الموت.. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كل لحظة ضعفاً وكان يرى الموت يدنو ولم يبق لديه ريب في أنه لم يبق له في الحياة إلا سويقات.

تقول أرجح الروايات: إنه ﷺ دعا في هذا اليوم القائط من أيام شبه الجزيرة العربية بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وإن رجلاً من آل أبي بكر -رضى الله عنه- دخل على عائشة -رضوان الله عليها- وفي يده سواك فنظر إليه رسول الله ﷺ نظراً دل على أنه يريد أن يأخذته أم المؤمنين عائشة -رضى الله عنها- من هذا الرجل ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستن به.

وإنه لما شق عليه النزاع: توجه إلى الله يدعوه: (اللهم أعني على سكرات الموت)!! قالت عائشة -رضى الله عنها- وكان رأس النبي ﷺ وسلم في هذه الساعة في حجرها: (وجدت رأس رسول الله ﷺ يثقل في حجرى فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول:

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق!! .

وقبض رسول الله ﷺ:

دفن الرسول ﷺ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وفوجئ المسلمون بهذا النبأ الأليم وهم بالمسجد فقد رأوه ﷺ في الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفى . . مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجته (بنت خارجة) بالسنع! لذلك أسرع عمر -رضى الله عنه- إلى حيث كان جثمان النبي ﷺ وهو لا يصدق أنه مات . . ذهب فكشف عن وجهه ﷺ فألفاه لا حراك به فحسبه في غيبوبة لا بد أن يفيق منها .

وعبثًا حاول (المغيرة بن شعبة) إقناعه بالحقيقة الأليمة . . فقد ظل مؤمنًا بأن رسول الله ﷺ لم يمت فلما ألح (المغيرة) عليه قال له عمر: كذبت!! وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران . . فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم رعموا أنه قد مات .

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر -رضى الله عنه- يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم في حال أشبه شيء بالذهول . . ألا إن كان محمد قد مات حقًا! فواحر قلباه! وياللهم الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق . . هم يذهل القلب ويذهب باللب .

أما إن كان محمد قد ذهب إلى ربه كما يقول عمر - فذلك أدعى للذهول . . وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى: أشد إمعانًا في العجب!! .

لذلك أحاطت جموعهم بعمر -رضى الله عنه- وهم أدنى إلى

تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله ﷺ لم يميت!!
فكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يرونه ويسمعون إلى صوته
الجمهورى وإلى دعائه واستغفاره؟ وكيف يموت وهو خليل الله الذى
اصطفاه لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقي أن يدين له
(كسرى) وأن يدين له (هرقل) بالإسلام!!.

وكيف يموت وهو هذه القوة التى هزت العالم مدى عشرين سنة
متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرفها التاريخ.
النساء هناك مازلن يبكين علامة أنه مات وعمر -رضى الله عنه-
ههنا بالمسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يميت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب
موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته: إنما هم المنافقون . . هؤلاء
المنافقون الذين سيضرب محمد ﷺ على أيديهم وأعناقهم بعد رجعته
!!.

أى الأمرين يصدق المسلمون؟
لقد أخذهم الفرع أول الأمر ثم مازالت بهم أقوال عمر -رضى الله
عنه- تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبى ﷺ حتى كادوا يصدقون
أمانيتهم ويصورون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.
وإنهم لذلك: إذ أقبل أبو بكر آتياً من (السنح) وقد بلغه الخبر
الفادح وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم . . فلم يقف طويلاً ولم يلتفت
إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة -رضى الله عنها- فاستأذن فدخل
فألفى النبى ﷺ مسجى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى
كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حياً . . وما أطيبك
ميتاً . . !!

ثم إنه أخذ رأس النبى ﷺ وسلم بين يديه وحقق فى معارف
وجهه وقال: (بأبى أنت وأمى! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها
ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً).

ثم أعاد الرأس الشريف إلى الوسادة ورد البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويقنعهم بأن رسول الله ﷺ لم يميت وفسح الناس لأبى بكر -رضى الله عنه- طريقًا .

فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم فأقبل أبو بكر -رضى الله عنه- على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم . . . ومن . . كأبى بكر فى هذا المقام؟ . . أليس هو الصديق صفى النبى ﷺ ومن لو اتخذ النبى خليلاً غير ربه لاتخذه خليلاً .

لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر . . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) . ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين﴾^(١) . وكان عمر -رضى الله عنه- قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبى بكر .

فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية: خر إلى الأرض . . ما تحمله رجلاه موقنًا أن رسول الله ﷺ قد مات . . وأما الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر -رضى الله عنه- حتى لقد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر كأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . . وكذلك زایل القلوب كل شىء فى أن محمدًا قد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد قبضه إليه!! أفكان عمر غاليًا حين اقتنع بأن محمدًا لم يميت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ . . كلا! . .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

فإن المصاب الفادح والخطب الجسيم قد استولى على جنبات نفسه
وملك عليه فؤاده . . إنه الرجل الذى عاش فى كنف محمد ﷺ وظله . .
إنه الرجل الذى كان قبل الإسلام جبار الجاهلية فأصبح بعد الهداية
عملاق الإسلام ! .

إنه فقد ذلك القلب الكبير الذى أفاض عليه من هدايه وإرشاده
وتوجيهه وتعليمه ما جعل منه (عمر بن الخطاب) الذى وقف يوم الهجرة
بعدهما طاف بالبيت يخاطب الملأ من قريش ويقول :

من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو ترمل زوجته فليتبعننى وراء هذا
الوادى . . فلم يتبعه أحد . . إنه عمر الذى كان لا يطيق مرور نسمة
تؤذى رسول الله ﷺ إلا ويصيح بصوته القوى :
يا رسول الله : مرنى بقتل هذا المنافق !!

فما بالك . . ينظر حواليه : فلا يرى الرسول بجانبه وينظر فوقه
فيرى النجوم قد خر من بينها البدر .

إذن . . . فلا لوم ، لأن عمر قد غشيته غاشية من هول المصاب .
وهكذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى . وقد صدق رب العزة حيث
يقول له : ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد.. أفإن مت فهم الخالدون .
كل نفس ذائقة الموت . ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ (١) .
وقد صدق الله تعالى إذ يقول له :
﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ (٢) .

فيا أخا الإسلام

لا خلود لأحد على هذه الأرض .
جدد السفينة . . فإن البحر عميق .
وأكثر الزاد . . فإن السفر طويل .

(١) سورة الأنبياء الآيتان [٣٤ ، ٣٥] . (٢) سورة الزمر الآية ٣٠ .

وأخلص العمل . . فإن الناقد بصير .
ونخفف الحمل . . فإن العقبة كتود .
لقد مات خير خلق الله وصفوته من عباده وأنا به لاحقون فأعد
الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .
لقد انتقل سيد المرسلين صلوات أبي وسلامه عليه إلى دار الحق .
واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها .
واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها .
واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها .
واعمل للنار بقدر صبرك عليها .
واعلم بأن من أراد مؤنسًا: فالله يكفيه .
ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه .
ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه .
ومن أراد واعظًا . . فالموت يكفيه .
ومن لم يكفه شيء من هذا . . فإن النار تكفيه!!

زيارة القبور

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم
ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها
وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾^(١) .
اعلم أخى أن القبر أول درجات الآخرة .
فعندما يموت العبد فإنه يضع قدمه على عتبة اللانهاية . ومن هنا:
يدخل عالم البرزخ .
وعالم البرزخ: محيط أعنف من أن يعجز عبابه سباحٌ ماهر!!

(١) سورة الحج الآيتان [١ ، ٢] .

قال جل شأنه: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت.. قال رب ارجعون .
لعلى أعمل صالحاً فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم
برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(١). والبرزخ هنا: هو الحاجز الزماني الذي يفصل
ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة .

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم
إليه ترجعون﴾^(٢). هذه الآية الكريمة جمعت الأزمان الثلاثة في جلال
وجمال . . . جمعت الآزال والآماد والآبادا .

﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث .. فإننا خلقناكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين
لكم .. ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم
لتبلغوا أشدكم .. ومنكم من يتوفى .. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى
لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة .. فإذا أنزلنا عليها الماء
اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه
يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن
الله يبعث من فى القبور﴾^(٣).

نداء القبر

أتدرى - يا ابن آدم - ماذا يقول القبر بلسان حاله؟ إنه يناديك
ويخاطبك بكلمات ينفطر لها القلب وينخلع من هولها الفؤاد.
روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: (خرجنا مع رسول الله
ﷺ فى جنازة ، فجلس إلى قبر منها فقال: ما يأتى على هذا القبر يوم
إلا وهو ينادى بصوت ذلق طلق: يا ابن آدم: نسيتنى ألم تعلم أنى بيت
الوحدة؟ وبيت الغربية؟ وبيت الوحشة؟ وبيت الدود؟ وبيت الضيق؟ إلا

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨ .

(١) سورة المؤمنون الآيتان [٩٩ ، ١٠٠] .

(٣) سورة الحج الآيات [٥ : ٧] .

من وسعني الله عليه؟ قال رسول الله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» - رواه الطبراني .
ولقد ركز رسول الله ﷺ تركيزاً قوياً على هذه الحقيقة العليا، وهي ذكر الموت، كما أخبرنا بذلك عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال:

أتيت النبي ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال:
يا نبي الله: من أكيس الناس، وأحزم الناس؟ قال: أكثرهم ذكراً
للموت وأكثرهم استعداداً للموت أولئك الأكياس . . ذهبوا بشرف الدنيا
وكرامة الآخرة» - رواه ابن أبي الدنيا .

وفى رواية ابن ماجه، لفظه: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أى المؤمنين
أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً. قال فأى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم
للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً . . أولئك هم الأكياس). ولقد
قلت لنفسى وأنا بين المقابر:

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر؟
فأشارت فإذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت: أيها السائل إنى لست أدري
انظري : كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى نفايا العبد رب الصولجان!
والتقى العاش والغالى . . فما يفترقان!
أفهذا منتهى الأمر؟ فقالت: لست أدري
أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام .
هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام
من هو الميت . . من عام . . ومن مليون عام
أتمنى: أننى أدري: ولكن لست أدري .

حكمة زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة للرجال:

لما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه: أن النبي ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها. فإنها تذكركم الآخرة».

وكان النهي ابتداءً، لأنهم كانوا لا يتورعون فيه عن هجر الكلام وفحشه فلما دخلوا في الإسلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه.. أذن لهم الشارع بزيارتها. وعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن النبي ﷺ رار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله. فقال النبي ﷺ: «استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي فزوروها فإنها تذكر الموت» - رواه أحمد ومسلم وأهل السنن إلا الترمذي.

صفة الزيارة الشرعية

إذا وصل الزائر إلى القبر: استقبل وجه الميت وسلم عليه ودعا له.. وقد جاء في ذلك: عن بريدة قال: كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. أنتم فرطنا ونحن بكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية» - رواه مسلم وأحمد وغيرهما. وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ مرّ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال: «السلام عليكم يا أهل القبور.. يغفر الله لنا ولكم.. أنتم سلفنا ونحن بالآثر» - رواه الترمذي.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان النبي ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» - رواه مسلم. وروى عنها قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله، قال:

«قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» .
وأما ما يفعله بعض من لا علم لهم من التمسح بالأضرحة وتقبيلها والطواف حولها، فهو من البدع المنكرة التى يجب اجتنابها ويحرم فعلها .
فإن ذلك خاص بالكعبة . زادها الله شرقاً : ولا يقاس عليها قبر نبي ولا ضريح ولى ، الخير كله فى الاتباع والشر كله فى الابتداع .
قال ابن القيم :

كان النبي ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها، والترحم عليهم والاستغفار لهم فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه . . بعكس هديه ﷺ . . فإنه هدى توحيد، وإحسان إلى الميت، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت .

وهم ثلاثة أقسام : إما أن يدعوا للميت، أو يدعوا ربه، أو عنده .
ويرون أن الدعاء عنده أولى من الدعاء فى المساجد . ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين .

ما ينفع الميت من الأعمال

من المتفق عليه أن الميت ينتفع بما كان سبباً فيه من أعمال البر فى حياته : لما رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال :
«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد بار يدعو له» - رواه ابن ماجه .

وعنه : أنه ﷺ قال : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناء، أو بيتًا لابن السبيل بناء، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته» .

وروى مسلم عن جرير بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم . . ومن سن في الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» .

ما ينفعه من أعمال غيره

- يتساءل العلامة ابن القيم فيقول:
- هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعى الأحياء . . أم لا؟
- ثم يجيب قائلاً: إنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير .
- أحدهما: ما نسب إلى الميت في حياته .
- والثاني: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، والصدقة أو الحج!
- ويرى الإمام أحمد، ومعه جمهور السلف: وصول الصوم والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر .
- وقد نص على هذا: الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال . . قال:
- قيل لأبي عبد الله: الرجل يعمل الشيء من الخير: من صلاة أو صدقة، أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟
- قال: (الميت يصل إليه كل شيء: من صدقة أو غيره) وقال أيضاً:
- اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات و«قل هو الله أحد» وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر .
- وهناك آراء أخرى في هذه المسألة، رأينا الإمساك عن ذكرها . .
- تيسيراً على القارئ .

الأدلة على ما سبق

الدليل على انتفاعه بما نسب إليه في حياته: ما رواه مسلم في

صحيحه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال :
«إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو
علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له» . فاستثناء هذه الثلاث من عمله :
يدل على أنها منه ، فإنه هو الذى تسبب فيها .

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال :
قال رسول الله ﷺ «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علما
علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً
لابن السبيل بناه أو نهراً أكراه أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته
وحياته تلحقه من بعد موته» .

وفى المسند عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : «من سن فى
الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن
ينقص من أجورهم . . . ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها
ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء» .
وقد دل على هذا : قوله ﷺ : «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على
ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» فإذا كان هذا فى
العذاب والعقاب ، ففى الفضل والثواب أولى وأحرى .
ومن الأدلة كذلك : ما نطق به القرآن الكريم وأتت به السنة المطهرة
ورآه الإجماع .
أما القرآن :

فقوله تعالى : ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا
ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾^(١) . فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم
باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد دل
على انتفاع الميت بالدعاء : إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة .

(١) سورة الحشر الآية ١٠ .

وفى السنن:

من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قام النبى ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

وفى السنن أيضاً عن وائلة بن الأسقع قام ﷺ على رجل من المسلمين فسمعه يقول: اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

ومن حديث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصين قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . . نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفى صحيح مسلم أن عائشة -رضى الله عنها- سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، فيرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» وفى صحيح مسلم أيضاً عنها -رضوان الله عليها- أن رسول الله ﷺ خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع

فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل الغرق». وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول: أنى لى هذا؟ فيقال: بدعاء ولدك لك.

وصول ثواب الصدقة

عقد العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- فصلاً في ذلك فقال: وأما وصول ثواب الصدقة: ففي الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى افتلئت نفسها ولم توصى وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة -رضى الله عنه- «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبى مات وترك مالا، ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

وفى السنن ومسنند أحمد عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء». فحفر بئراً وقال: هذه لأم سعد.

وعن عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر فى الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خمساً وخمسين، وأن عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» - رواه الإمام أحمد.

وصول ثواب الصيام

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه :

وأما الدليل على وصول ثواب الصوم إلى الميت فما روى فى الصحيحين عن عائشة -رضى الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال : «من مات وعليه صيام: صام عنه وليه» .

وفى الصحيحين أيضاً عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : «جاء رجل إلى النبی ﷺ فقال يا رسول الله : أمى ماتت وعليها صوم شهر . . أفأقضيه عنها؟ قال : نعم . . فدين الله أحق أن يقضى» .

وفى رواية : «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : إن أمى ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال : أفرأيت لو كان على أمك دين فقبضته : أكان يؤدي ذلك عنها . قالت : نعم ، قال فصومي عن أمك» .

وهذا اللفظ للبخارى وحده تعليقا .

وعن بريدة -رضى الله عنه- قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت : إني تصدقت على أمى بجارية ، وإنها ماتت فقال : وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت : يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال : صومي عنها قالت : إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال : حجي عنها» رواه مسلم .

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا فنجأها الله ، فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها» - رواه أهل السنن والإمام أحمد .

وكذلك روى عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام :
ففى السنن : عن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال : قال رسول الله ﷺ «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين» - رواه الترمذى .

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً.

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر: قضى عنه وليه».

وصول ثواب الحج

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما وصول ثواب الحج: ففى صحيح البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها. أرأيت لو كان على أمك دين أكننت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء».

وقد تقدم حديث بريدة وفيه: «إن أمى لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها».

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إن امرأة سنان بن مسلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال: نعم. لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها» رواه النسائى.

وروى أيضاً عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن «امرأة سألت النبى ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال: (حجى عن ابنك). وروى أيضاً عنه قال: «قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو كان على أبوك دين أكننت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق».

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته، ولو كان من أجنبى أو من غير تركته.

وقد دل عليه حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال له النبي ﷺ الآن بردت عليه جلده» .

سؤال القبر

اتفق أهل السنة والجماعة : على أن كل إنسان يسأل بعد موته : قبر أم لم يقبر . .

فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو غرق في البحر : ليستل عن أعماله وجوزى بالخير : خيراً ، وبالشر : شراً .

وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً . . قال ابن القيم : ذهب سلف الأمة وأئمتها إلى أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وإن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب . ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى : أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين وتعاد الأبدان» متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى وقال المروزي : قال أبو عبد الله - يعني الإمام أحمد - عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل .

وقال حنبل : قلت لأبي عبد الله : في عذاب القبر؟

فقال : هذه أحاديث صحاح تؤمن بها ونقر بها . . كلما جاء عن النبي ﷺ إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه : رددنا على الله أمره . . قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾^(١) .

قلت له : وعذاب القبر حق؟ قال : حق . . . يعذبون في القبور . قال : وسمعت أبا عبد الله يقول : تؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير

. (١) سورة الحشر الآية ٧ .

وأن العبد يسأل فى قبره . . . قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١) . . . فى القبر .
وقال أحمد بن القاسم : قلت : يا أبا عبد الله : تقر بمنكر ونكير وما يروى فى عذاب القبر؟ فقال : سبحان الله . . نعم . . نقر بذلك ونقر له .

قلت : هذه اللفظة تقول : منكر ونكير هكذا؟ أو تقول : ملكين؟
قال : منكر ونكير .
قلت يقولون : ليس فى حديث منكر ونكير .
قال : هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير .
ثم يطرح العلامة ابن القيم فى هذه القضية سؤالاً يقول فيه :
هل تعاد الروح إلى الميت فى قبره وقت السؤال أم لا؟
ويجيب قائلاً : فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه : فقد قال البراء بن عازب .
كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا النبى ﷺ فقعده وقعدنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وهو يلحده له فقال : «أعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال : «إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجرى ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة : أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من (فى) السقاء - أى فمه - فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال : فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون : فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التى كانوا

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

يسمونه فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعة من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم ومنها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له : وما علمك بهذا ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت .
فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة .

قال : فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره .
قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير فيقول : أنا عمك الصالح فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ، قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة : نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط من الله وغضب . .

قال : فيتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السنود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الريح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى

الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾^(١).

فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى» فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾^(٢).

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤك هذا يومك الذي كنت توعده.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول: أنا عمالك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة»

رواه الإمام أحمد وأبو داود.

اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

نصوص نبوية صحيحة

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة نستشهد بها على صحة ما ذكرناه:

روى مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ في حائط (الحائط هو البستان) لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا قبر ستة أو خمسة أو أربعة . . فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل: أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال:

(١) سورة الأعراف الآية ٤٠. (٢) سورة الحج الآية ٣١.

مات فى الأشراط . فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها . . . فلولا أن لا تدافنوا : لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر : الذى أسمع منه . ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار . قالوا نعوذ بالله من عذاب النار . قال : تعوذوا بالله من عذاب القبر . قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر . قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال : تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال .»

وروى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس أن النبى ﷺ قال : إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم : أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ لمحمد ﷺ . فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .

قال : فيقولان : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة . . فيراهما جميعاً .

وأما الكافر والمنافق فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقولان : لا دريت ولا تليت . . ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين . (ومعنى لا دريت . . ولا تليت) : أى لا كنت دارياً ولا تالياً . . والمقصود بها الدعاء عليه) .

وروى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله : فذلك قول الله ﷻ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»^(١) .

وفى لفظ : نزلت فى عذاب القبر : يقال له من ربك ؟ فيقول : الله ربى ومحمد نبى فذلك قول الله ﷻ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»^(١) .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبى حاتم أن النبى ﷺ قال :
«إن الميت إذا وضع فى قبره : إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون
عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن
شماله وكان فعل الخيرات «من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان» عند
رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ثم يؤتى من
يمينه فيقول الصيام : ما قبلى مدخل . ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة : ما
قبلى مدخل . ثم يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصدقة
والصلة والمعروف والإحسان : ما قبلى مدخل . فيقال : له اجلس .
فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له : هذا الرجل
الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول؟ دعونى حتى
أصلى فيقولان : إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه؟ أرأيتك هذا الرجل
الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول : محمد أشهد أنه
رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقولان له : على ذلك حييت وعلى
ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال
له : هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له
فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمة
فى النسيم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة . . قال : فذلك قول الله
تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ﴾^(١) . . وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال :

«ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف أضلاعه فتلك المعيشة
الضنك التى قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَعْمَى﴾^(٢) .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : «كان النبى ﷺ

(٢) سورة طه الآية ١٢٤ .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول: ما شاء الله... فسألنا يوماً فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي وأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كlob من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذ فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت: ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوحد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب: ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت: رجعوا فقلت: ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه (أى فمه) فردّه حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج: رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا إلى الشجرة وأدخلانى داراً لم أرقط أحسن منها... فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت؟ قالاً: نعم: الذى رأيته يشق شدقه: كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة. والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيته فى النقب: فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر: فأكل الربا. فأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة: فإبراهيم والصبيان حوله: فأولاد الناس.

والذى يوقد النار: فمالك خازن النار .
والدار الأولى: دار عامة المؤمنين . وأما هذه الدار فدار الشهداء .
وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك . . فرفعت رأسى فإذا قصر مثل
السحابة قالوا: ذلك منزلك قلت: دعانى أدخل منزلى . قالوا: إنه بقى
لك عمر لم تستكمله فلو استكملته: أتيت منزلك»
قال ابن القيم: وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى
ومطابق لما فى نفس الأمر .

وروى الطحاوى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «أمر بعبد من
عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى
صارت واحدة فامتلاً قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق . قال: علام
جلدتمونى؟ قالوا: إنك صليت بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم
تنصره» وعن أنس أن النبى ﷺ سمع صوتاً من قبر فقال:
متى مات هذا؟ فقالوا: مات فى الجاهلية فسر بذلك وقال: «لولا
أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» رواه النسائى ومسلم .
وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «هذا الذى
تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من
الملائكة . . . لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» - رواه البخارى ومسلم
والنسائى .

﴿تعليق﴾

إذا سأل سائل ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن
مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟
أجاب على ذلك العلامة ابن القيم فقال: الجواب من وجهين:
مجمل ومفصل .

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحيين
وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما: الكتاب
والحكمة . .

قال تعالى : ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾^(١)

قال تعالى : ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾^(٢) . وقال تعالى : ﴿واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾^(٣) .
والكتاب : هو القرآن .

والحكمة : هى السنة باتفاق السلف .
وما أخبر به الرسول عن الله : فهو فى وجوب تصديقه والإيمان به . . كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله . .
هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم .
وقد قال النبى ﷺ «إنى أوتيت الكتاب ومثله معه» .

وأما الجواب المفصل : فهو أن نعيم البرزخ وعذابه المذكوران فى القرآن فى غير موضع . . فمنها قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم.. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾^(٤) .

وهذا خطاب لهم عند الموت .
وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم : اليوم تجزون ومنها قوله تعالى : ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾^(٥) .

(١) سورة النساء الآية ١١٣ . (٢) سورة الجمعة الآية ٢ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٤ . (٤) سورة الانعام الآية ٢ .

(٥) سورة غافر الآيات [٤٥ ، ٤٦] .

فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً . . لا يحتمل الشك . ومنها قوله تعالى : ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون. يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾^(١).

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر أن مات منهم . . عذب فى البرزخ ومن بقى منهم . . عذب فى الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم فى الدنيا وفى البرزخ . ومنها قوله تعالى : ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾^(٢).

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله بن عباس على عذاب القبر . وفى الاحتجاج بها شيء ؛ لأن هذا عذاب الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن .

لكن من فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه : فهم منها عذاب القبر . . فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين : أدنى وأكبر . فأخبر أن يذيقهم بعض «الأدنى» ليرجعوا . . فدلّ على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال : «من العذاب الأدنى» ولم يقل «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى» .

فلنتأمل ذلك جيداً . . ونظيره قول النبى ﷺ : «يفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها» ولم يقل : فيأتيه حرها وسمومها فإن الذى وصل إليه : بعض ذلك وبقى له أكثره . . والذى ذاقه أعداء الله فى

(٢) سورة السجدة الآية ٢١ .

(١) سورة الطور الآيات [٤٥ : ٤٧]

الدنيا بعض العذاب وبقي لهم: ما هو أعظم.
ومنها قوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون،
ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين،
ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان
وجنة نعيم، وأما إن كان أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب
اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية
جحيم، إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم﴾^(١)

فذكر ههنا: أحكام الأرواح عن الموت وذكر في أول السورة:
أحكامها يوم المعاد الأكبر. وتقديم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية...
إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في
الآخرة ثلاثة أقسام. ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي
إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾^(٢)...

وقد اختلف السلف: متى يقال لها ذلك؟

فقال طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ: مع هؤلاء فإنه
خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله في حديث البراء وغيره فيقال لها:
(اخرجي راضية مرضياً عنك) وقوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي﴾
مطابق لقوله ﷺ «اللهم الرفيق الأعلى». وأنت إذا تأملت أحاديث
عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة ابن القيم:

ذلك راجع إلى سببين:

مجمل ومفصل:

(٢) سورة الفجر الآيات [٢٧ : ٣٠].

(١) سورة الواقعة الآيات [٨٣ : ٩٦].

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفتة وأحبته وأمثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة: أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك . كان له من عذاب البروخ بقدر غضب الله وسخطه عليه : فمستقل ومستكثر ومصدق ومكذب .

وأما المفصل : فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول .

فهذا ترك الطهارة الواجبة ، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة : بالكذب والزور والبهتان : أعظم عذابا كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيها على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذابا وفي حديث شعبة (أما أحدهما : فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام) .

وقد تقدم حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في الذي ضرب سوطا امتلا القبر عليه به نارا لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره ، وقد جاء في صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : (كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال : من رأى منكم الليلة رؤيا . . . ؟ والحديث : مذكور بطوله فيما مضى فليرجع إليه من شاء ومما سبق يتبين أن عذاب القبر يكون عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله : فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف في كلامه وأكل الربا وآخذه ومعطيه وكاتبه وشاهده وأكل أموال اليتامى وأكل السحت من الرشوة والبرطيل (الرشوة) ونموهما وأكل

مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وأكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والمأكر والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التى حرم الله والملحد فى حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ والنائحة والمستمع إليها ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرّج والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمازون واللمازون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله: خاف وأرعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأساً فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ: عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق: طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعى الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين: لم يكذب ولو هدد وعوقب والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وإضرابه - وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك - والفاحش اللسان البذى الذى تركه الخلق تقاء شره وفحشه والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها نقرأ ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها

ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرأى العالمين ويمنع الماعون ويتشغل بعيوب الناس عن عيبه وبذنوبهم عن ذنبه .

كل هؤلاء وأمثالهم: يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقتلتها وصغيرها وكبيرها .
ولما كان أكثر الناس كذلك: كان أكثر أصحاب القبور معذيين والفائز منهم قليل .

فظواهر القبور: تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبینات وفى باطنها الدواهي والبليات .
تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيتها . تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت: يا عمار الدنيا: لقد عمرتم داراً موشكة بكم زوالاً .
وخربتم داراً أنتم مسرعون إليها انتقالاً .
عمرتم بيوتاً لغيركم : منافعها وسكنائها .
وخربتم بيوتاً ليس لكم مساكن سواها .
هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر الزرع وهذه محل للعبر: رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار!

فضل القرآن ومدارسته

اعلم - وفقني الله وإياك - أن حرص العبد في الدنيا على قراءة القرآن ومدارسته وحفظه وتلاوته: خير ما ينور له قبره ويفسح له فيه .
يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في هذا المعنى:
وخير جليس لا يمل حديثه
ترداده يزداد فيه تجملاً

وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته
من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك يهنيه مقبلا وروضة
ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيا أيها القارى به متمسكا
مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئا مريثا والداك عليهما
ملا بس أنوار من التاج والحلى!
يرحم الشاطبي وجزاه الله عن القرآن خيراً.

فضل القرآن وحافظ القرآن

وها نحن أولاً: نذكر نصوصاً تبين لنا فضل القرآن على أصحابه
العاملين به المستمسكين بهديه السالكين على منهجه السائرين على دربه .
قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن
العظيم﴾^(١).

وقال جل شأنه: ﴿بل هو قرآن مجيد﴾^(٢).
وقال سبحانه وتعالى: ﴿وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾^(٣).

وصح عن النبي ﷺ أنه حدث عن جبريل عليه السلام عن الله
تبارك وتعالى أنه قال: (من شغله قراءة كتابي عن مسألتي: أعطيته أفضل

(٢) سورة البروج الآية ٢١.

(١) سورة الحجر الآية ٨٧.

(٣) سورة فصلت الآيتان [٤١ ، ٤٢].

ما أعطى الشاكرين) وفى رواية أخرى (السائلين).
وعن أنس عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله أهلين من الناس فقيل:
من هم يا رسول الله؟

قال: أهل القرآن. هم أهل الله وخاصته»
وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- يرفعه: (أشرف أمتي: حملة
القرآن وأصحاب الليل).
وعنه أيضاً يرفعه:

(من أعطى القرآن فظن أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى: فقد عظم
ما حقر الله وحقر ما عظم الله) وقال: (من أوتى القرآن: فكأنما أدرجت
النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه).

وسئل النبى ﷺ: من أفضل الناس؟ فقال: «الحال المرتحل قيل:
ومن الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن.. كلما حل ارتحل: أى كلما
أتم ختمة: استأنف ختمة أخرى».

وعن على -رضى الله عنه- قال: (ذكر لرسول الله ﷺ الفتنة..
قلنا يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم
وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من
جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله
المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تلتبس له
الأسن ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشيع منه
العلماء، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم يلبث الجن إذ سمعته أن
قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾^(١). من قال به: صدق ومن حكم به
عدل ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم.

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال: «إن هذا
القرآن مآدبة الله فى أرضه فتعلموا مآدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو

(١) سورة الجن الآية ١.

حبلى الله فهو نوره المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقراءوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول: ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» .

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفعه إلى النبى ﷺ أنه قال: «القرآن أفضل من كل شىء دون الله فمن قرأ القرآن: فقد قرأ الله ومن لم يقر القرآن، فقد استخف بحرمة الله، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده» .

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلث القرآن فقد أوتى ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتى نصف النبوة، ومن قرأ ثلثى القرآن أوتى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها، ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى يتبخر ما معه من القرآن ثم يقال له: اقبض فيقبض فيقال: هل تدري ما فى يدك؟ فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم» .

وعن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ أنه قال: «حملة القرآن محبون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله فمن عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله» .

يقول الله عز وجل: ﴿يا حملة كتاب الله تحبوا إلى الله بتوقيع كتابه يزدكم حباً ويحببكم إلى خلقه يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة» .

ولستمع آية من كتاب الله خير من ثبير ذهباً ولتالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى .

وعن أبى بريدة -رضى الله عنه- قال: «كنت عند النبی ﷺ فسمعتہ يقول: إن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره: كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك.. القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة.

قال: فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ: هداً كان أو ترتيلاً».

وعن معاذ -رضى الله عنه- قال: «كنت في سفر مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله حدثنا بحديث فقال: إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة: فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان في الميزان».

وعن عتبة بن عامر قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في الصفة فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان - أو العقيق فيأتي بناقتين كومادين زهراوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟ قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك.. قال: لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث من أعدادهن من الإبل».

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يتتبع فيه له أجران».

وروى عن أبى ذر أنه جاء إلى النبی ﷺ فقال: يا رسول الله إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به فقال ﷺ: «لا يعذب الله قلباً أسكنه القرآن».

وعن أنس عن النبی ﷺ أنه قال: «من علم آية من كتاب الله كان

له أجرها ما تليت» .

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا فإن فيه علم الأولين والآخرين ألم تسمعوا قوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾» .

وعن وائلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المائدة مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» .

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: افتخرت السماء على الأرض فقالت: أنا أفضل: في العرش والكرسي واللوح والمقام وفي جنة المأوى وجنة عدن وفي الشمس والقمر والنجوم ومنى ينزل أرزاق الخلق وفي الرحمة فقالت الأرض: وتركت أن تقول: في الأنبياء والأولياء وفي بيت الله بل قالت: أليس تنقلب أضلاع حملة القرآن في بطني فقال الله: صدقت يا أرض وكان افتخارها على السماء أن قال الله لها: صدقت! .

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ «مثل الذي يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به: كمثل الريحانة لها رائحة وطعمها مر، ومثل الذي لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة: لا طعم لها ولا رائحة» .

وسئل النبي ﷺ: «من أحسن الناس صوتًا؟ قال: من إذا سمعته يقرأ خشية: تخشى الله وكان ﷺ يقول لأصحابه: اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن» .

وقال ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن. ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿وشفاء لما في الصدور﴾^(١)».

وقال عليه السلام: القرآن هو الدواء.

وقال: «لا فاقة بعد القرآن ولا غنى دونه» وقال: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق».

وقال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه: لم يرد إلى أرذل العمر». وقال في قوله: ﴿يتلون حقا تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

النجاة من عذاب القبر

إذا سألنا وقلنا: ما هي أسباب المنجيات من عذاب القبر حتى نأخذ في تحصيلها؟

فإن الجواب على ذلك يكون من وجهين: أحدهما مجمل والآخر مفصل.

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التي تقتضي عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه في يومه، ثم يخدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاتته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التي وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك ولا قوة إلا بالله

(١) سورة يونس الآية ٥٧.

أما الجواب المفصل فذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر: فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن سلمان -رضى الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»

وفي جامع الترمذى من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

وفي سنن النسائى عن رشدى بن سعد عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.

وعن المقدام بن معدى كرب -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه» رواه ابن ماجه والترمذى وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «ضرب رجل من أصحاب رسل الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فأتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله: ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فقال النبى ﷺ: «هى المانعة، هى المنجية: تنجيه من عذاب القبر» قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب.

وفي سند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال لرجل: ألا أتخفك بحديث تفرح

به؟ قال الرجل: بلى؟ قال: اقرأ: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾^(١). احفظها وعلمها. أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له): ﴿تبارك الذى بيده الملك﴾.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- يرفعه: «من مات مبطوناً: مات شهيداً ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة».

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يشكر يقول: «كنت جالساً مع سليمان بن صرة وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قتله بطنه لم يعذب فى قبره».

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى فذكره وزاد: فقال الآخر: بلى. وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل.

(١) سورة الملك الآية ١.

وقد جاء فيما ينجى من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المدينى وبين علته فى كتابه (الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له) رواه من حديث الفرّج بن نضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالدين فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه. ورأيت رجلاً من أمتى احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتى يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه ورواه. ورأيت رجلاً من أمتى ورأيت النبيين جلوساً حلّقاً حلّقاً كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعدته إلى جنبى. ورأيت رجلاً من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه فى النور. ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلّموه فكلّمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله فى ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتى جاثياً على ركبتين وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله - عز وجل - فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه. ورأيت رجلاً من أمتى خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاءه من الله عز وجل

فاستنقذه من ذلك ومعنى ورأيت رجلاً من أمتي قد هوى في النار فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله - عز وجل - فاستنقذته من ذلك . ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى . ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً فبادر يا أخى بالأعمال الصالحة كما أمرك بذلك مولانا سبحانه وتعالى في قوله : ﴿فاستبقوا الخيرات﴾^(١) وفي قوله عز وجل ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾^(٢) .

وفي قوله جل شأنه ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾^(٣) .

وفي قوله تبارك وتعالى ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾^(٤) . قال ﷺ : «بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو هرمًا مفنداً ، أو مرضاً مفسداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر» . فكن لله ذاكراً وإياك ونسيان الموت فنسيانه ضلال مبين . واعلم بأن خير الأعمال : ذكر الله .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٨ . (٢) سورة آل عمران الآيتان [١٣٣ ، ١٣٤] .

(٣) سورة الحديد الآية ٢١ . (٤) سورة المطففين الآية ٢٦ .

والذكر على سبعة أنحاء:
ذكر العينين: البكاء.
ذكر الأذنين: الإصغاء.
ذكر اللسان: الثناء.
ذكر اليدين: العطاء.
ذكر البدن: الوفاء.
ذكر الروح: الخوف والرجاء.
ذكر القلب: التسليم والرضاء.

فضل ذكر الله

قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده».
وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند ملكيكم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا: بلى قال: ذكر الله».

مناجاة

ما والذي أبكى وأضحك والذي
أمات وأحيا والذي أخرج المرعى
لقد خاب من يسعى إلى غير بابه
وضل الذي يوماً إلى غيره يدعى
هو القصد لا شيء سواه فمن سعى
إلى غير ذاك القصد يا خيبة المسعى
هو الماجد البر الرحيم وغيره
من الناس لا يستطيع ضرراً ولا نفعاً

يعامل بالغفران والصفح من عصي
ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا
فسبحانه لا رب فى الكون غيره
يحب الذى يلقى إلى قوله السمعا
سؤال القبر

اعلم بأن سؤال القبر: يعم المؤمن والكافر والقرآن والسنة يؤيدان ذلك.

﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة
ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (١).

وقد ثبت فى الصحيح أنها نزلت فى عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه: إنه ليسمع قرع نعالهم» وذكر الحديث.

زاد البخارى :

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت... ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين. وقد أخبر الله فى كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى: ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين﴾ (٤).

(٢) سورة القصص الآية ٦٥.

(٤) سورة الأعراف الآية ٦.

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

(٣) سورة الحجر الآية ٩٢.

فإذا سئلوا يوم القيامة: فكيف لا يسألون فى قبورهم؟

مستقر الأرواح

هناك أسئلة تتعلق بالروح وتجد النفس اشتياقاً ملحاً لمعرفة الإجابة عنها...

وأول هذه الأسئلة:

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟
ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة تقول:

هل هى فى السماء أم فى الأرض؟ .. وهل هى فى الجنة. أم لا؟ .
قال العلماء - تعقيماً على هذه الأسئلة - : هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس .. ومصدر الإجابة عنها هو السمع: أى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله فى الجنة: شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم تجسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وإن روح الكافر فى النار.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ. فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾^(١).

قال المستدل: وهذا قد ذكره سبحانه وتعالى عقب ذكر خروجها من البدن بالموت فى قوله جل شأنه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينْتُمْ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ. فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾^(٣).

(٢) سورة الواقعة الآيتان [٨٣ : ٨٧].

(١) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ ، ٨٩].

(٣) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ : ٨٩].

فقد قسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام:
(مقربين) . . . أخبر أنها فى جنة النعيم .
(وأصحاب يمين): حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من
العذاب .

(ومكذبة ضالة): وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم .
قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً .
وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة، فذكر حالها
بعد الموت وبعد البعث .
واحتجوا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ. ارجعى إلى ربك
راضية مرضية. فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾^(١) .
وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند
خروجها من الدنيا أيبشرها الملك بذلك .

ولا ينافى ذلك قول من قال إن هذا يقال لها فى الآخرة، فإنه يقال
لها عند الموت وعند البعث، وهذه من البشرى التى قال الله فيها: ﴿إِنَّ
الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا. تَنْزِيلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا
تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(٢) .
وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون فى القبر، ويكون عند
البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ أن الملك يقول لها عند قبضها:
أبشرى بروح وريحان . وهذا من ريحان الجنة وروى الإمام مالك فى
(الموطأ) عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن
أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة
المؤمن: طائر تعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه» .

(١) سورة الفجر الآيتان [٢٧ : ٣٠] . (٢) سورة فصلت الآية ٣٠ .

قال أبو عمرو: المراد بنسمة المؤمن: روحه. وقد شاء فضل الله تعالى أن يخص الشهداء بمنازل كريمة ودرجات رفيعة، جزاء ما بذلوا وقاتلوا وقتلوا.

قال عليه السلام: «لشهداء عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه».

فلما كان هذا يختص بالشهيد قال: «إن للشهيد» ولم يقل: «إن للمؤمن». وكذلك قوله في حديث قيس الجزامي: «يعطى الشهيد ست خصال». وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التي علق فيها الجزاء بالشهادة.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق في ثمر الجنة».

وعن معمر عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء في صور بيض تأكل من ثمار الجنة.

وعن أبي عاصم الشيبلي عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو: «أرواح الشهداء في طير كالزراير يتعارفون ويرزقون من ثمرة الجنة».

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء، دون غيرهم. وفي بعضها «في صور طير». وفي بعضها «في أجواف طير» وفي بعضها «كطير خضر».

قال: والذي يثبت عندي - والله أعلم - أن يكون القول قول من قال «كطير» أو «صور الطير».

ثم: مازلنا بصدد الحديث عن مستقر الأرواح.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ، فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت. فقال: «إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر، ترعى في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت الدش يقولون: ربنا الحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا».

وإن أرواح الكفار في حواصل الطير سود، تأكل من النار وتشرب من النار، وتأوى إلى حجر في النار. . يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا.

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن صخرة بن حبيب قال: سئل النبي ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: في طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة في سجين.

رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبد الله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبي بكر بن أبي مريم عن صخرة بن حبيب.

وعن تميم الرازي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء: استقبله جبرائيل في سبعين ألفاً من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء، سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش: خر ساجداً فيقول الله - عز وجل - لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظل مدود وماء مسكوب.

رواه بكر بن خنيس عن خدار بن عمرو عن زيد وأبي عبد الله.

كلمة عن الروح

اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك - أن الروح لا يمنعها شيء من الإشراف والاتصال بالقبر وفنائها. . . وذلك القدر من الإشراف كاف لعرض مقعده عليه. . . فإن للروح شأنًا آخر: تكون في الرفيق الأعلى

فى أعلى عليين ولها اتصال بالبدن سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملاء الأعلى .

ومن الخطأ الشنيع أن يعتقد بعض الناس أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكانًا لا يمكن أن تكون فى غيره . وهذا خطأ محض . . . بل الروح تكون فوق فى أعلى عليين وترد إلى القبر فتد السلام . وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائمًا ويردها الله سبحانه وتعالى إلى القبر فتد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه .

وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائمًا يصلى فى قبر ، ورآه فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة : فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر ، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائه بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى السماء .

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش ، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان . وكذلك روح الميت : تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السماوات السبع ، وتقف بين يدى الله فتسجد له ، ويقضى فيها قضاء ، ويرى الملك ما أعد الله لها فى الجنة ، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه .

وقد ذكر أبو عبدالله بن منده من حديث عيسى بن عبدالرحمن : حدثنا ابن شهاب ، حدثنا عامر بن سعد عن إسماعيل بن طلحة ابن عبيد الله عن أبيه قال : «أردت مالى بالغباء ، فأدركنى الليل ، فأويت إلى قبر عبدالله بن عمرو بن حرام ، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : ذلك عبدالله . . ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة ، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك ، حتى إذا طلع الفجر : ردت أرواحهم إلى مكانهم الذى كانت به» .

ففى هذا الحديث : بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى ، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها .

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسله تذهب حيث شاءت وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد: أمر يعلمه عامة الناس . ولا يشكون فيه .

ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت

عقد العلامة ابن القيم فصلاً يدور حول سؤال، مفاده: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم . أم لا؟ ولما كان هذا السؤال يلقي ظلالاً على نفس السائل: لابد من كشف الغطاء عنها . فإن الإجابة جاءت موافقة للقاعدة التى قعدناها من قبل، والتى تفيد أن المصدر الحقيقى لما يدور بعد الموت: إنما هو السماع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ولذا بدأ «ابن القيم» الإجابة قائلاً:

قال ابن عبد البر ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام .

وفى الصحيحين عنه ﷺ - من وجوه متعددة - «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً فقال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من أقوام قد جيفوا . . فقال: والذى بعثنى بالحق: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواباً» .

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه . وقد شرع النبى ﷺ لأئمة: إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل . ولولا ذلك: لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب للمعدوم والجماد .

والسلف الصالح مجموعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له، ويستبشر به .

وقال أبو بكر عن عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب

«القبور»: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده: إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم».

حدثنا محمد بن قدامة الجوهري، حدثنا معن بن عيسى القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: «إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام».

حدثنا محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر حدثني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجحدري قال: «رأيت عاصمًا الجحدري في منامي بعد موته بستين فقلت: أليس قدمت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة... أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات... بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال، قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته».

وحدثنا محمد بن الحسين وحدثني بكر بن محمد، حدثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى المقابر فنقف على القبر فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيدت هذا اليوم -يوم الإثنين- قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوم قبلها ويوم بعدها.

حدثني محمد، حدثنا عبدالعزيز بن أبان، قال: حدثنا سفيان الثوري، قال: «بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس: علم الميت بزيارته، فقليل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة»

حدثني محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن أبي بكير حدثني

الفضل بن موفّق بن خصال سفيان بن عيينة قال: «لما مات أبى: جزعت عليه جزعاً شديداً فكنت آتى قبره فى كل يوم ثم قعدت من ذلك ما شاء الله ثم إنى أتيت يوماً... فبينما أنا جالس عند القبر: غلبتنى عيناي، فنمت فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشحاً أكفانه، عليه سحنة الموتى، قال فكأننى بكيت لما رأيته، قال: يا بنى ما أبطأ بك عنى؟ قلت: وإنك لتعلم بمجيئى؟ قال: ما جئت مرة إلا علمتها، وقد كنت تأتينى فأنس بك وأسر بك ويسر من حولى بدعائك، قال: فكنت آتية بعد ذلك كثيراً».

(حدثنى) محمد، حدثنى يحيى بن بسطام حدثنى عثمان بن سودة الطغاوى، قال: وكانت أمه من العابدات وقال:

«لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت: يا ذخرى وذخيرتى ومن عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى فى قبرى، قال: فماتت فكنت آتيتها فى كل جمعة فأدعو لها وأستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها: يا أماه: كيف أنت؟ قالت: أى بنى: إن الموت لكربة شديدة وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود نفتشر فيه الإيمان ونتوسد فيه السندس، والاستبرق إلى يوم النشور، فقلت لها: ألك حاجة؟ قالت: نعم قلت: وما هى؟ قالت: لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا والدعاء لنا فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة، إذا أقبلت من أهلك، يقال لى: هذا ابنك قد أقبل فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات».

حدثنى محمد بن عبد العزيز بن سليمان، حدثنا بشر بن منصور قال: «لما كان زمن الطاعون فكان رجل يختلف إلى المقابر فيشهد الصلاة على الجنائز، فإذا أمسى: وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم.» لا يزيد على هذه الكلمات، قال: فأمسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو، قال: فبينما أنا نائم: إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت: ما أنتم وما حاجتكم؟ قالوا: نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك. فقلت: وما هى؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها، قال: قلت أعود لذلك، قال: فما تركتها بعد».

حدثني محمد، حدثني أحمد بن سهل، حدثني رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبي حبيب أن سليمان بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه: «لو نزلت إلى هذه المقابر فبُلت في بعض حضرها، فبكى، ثم قال: سبحان الله!! والله إنى لأستحي من الأموات كما أستحي من الأحياء».

ولولا أن الميت يشعر بذلك: لما استحييت منه.

قال العلامة ابن القيم: وأبلغ من ذلك: أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه.

قال عبد الله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبي أيوب، قال: «تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسناً: فرحوا واستبشروا، وإذا رأوا سوءاً: قالوا اللهم راجع به».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الخوارى قال: حدثني محمد أخى، قال: «دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين، فقال: عظنى، قال: بم أعظك؟ أصلحك الله... بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك؟ فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته».

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، وحدثني خالد بن عمرو الأموى، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال: كنت قد أذنبت ذنباً - ثم أنبت وتبت وندمت على ما فرطت، قال: ثم زلت أيما زلة، فرأيت فى المنام، فقال: أى بنى: ما كان أشد فرحى بك.. أعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه الزلة: استحييت لذلك جياء شديداً فلا تحزننى، فمن حولى الأموات.. قال: فكنت أسمع بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكان جاراً لى بالكوفة: أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حوراً يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين:

وهذا باب فى آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبدالله بن رواحة يقول: اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبدالله بن رواحة كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبدالله.

ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائر ولولا أنهم يشعرون به، لما صح تسميته زائراً فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاروه: لم يصح أن يقال زاره.

هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك: السلام عليهم أيضاً. . فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم: محال.

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإننا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية».

قال يزيد بن هارون: أخبرنا سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدى أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف فانتهى إلى قبر. . . قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان إذ أسمعت صوتاً فى القبر: إليك عنى لا تؤذنى فانكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا».

فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته. وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى الحسين بن على العجلي حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة، قال: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكينى، يقول: قد أذيتنى منذ الليلة. . ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيراً. . أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نوراً أمثال الجبال».

استئناس الميت بالمشييعين لجنازته

ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشييعين لجنازته بعد دفنه . . .
روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالرحمن بن شماسه
المهدى، قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت، فبكى
طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه؟ أما
بشرك رسول الله ﷺ بكذا، فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما بعد
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق
ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى ولا أحب
إلى أن أكون قد استمكننت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت
من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبى: لقيت رسول الله ﷺ،
فقلت: أبسط يديك فلا بایعك، فبسط يمينه قال: فقبضت يدي، قال:
فقال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشرط قال: تشتط ماذا؟
قلت أن يغفر لى. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن
الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحداً
أحب إلى من رسول الله ﷺ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أطيق
أن أملأ عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطق، لأننى لم أكن
أملأ عينى منه، لو مت على تلك الحال: لرجوت أن أكون من أهل
الجنة . . ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصاحبني
نائحة ولا نار، فإذا دفنتمونى: فسنوا على التراب سناً ثم أقيموا حول
قبرى قدر ما تنمر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم، وأنظر ماذا
أراجع به رسل ربى .

فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم .
وقد ذكر عن جماعة من السلف الصالح أنهم أوصوا أن يقرأ عند
قبورهم وقت الدفن .

قال عبدالحق: يروى أن عبدالله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك: المعلى بن عبدالرحمن وكان الإمام أحمد منكر ذلك أولاً، حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك.

الماديون والموت

إن الصلة بين الحى والميت أكبر وأستر وأقوى من صلة الأحياء بالأحياء. وخاطئ كل الخطأ: من ظن أن الموت حكم بالإعدام وهذا ما يردده الماديون الغافلون المضلون، إن الموت مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.

انتقال من جوار الخلق إلى رحاب الحق. انكشاف للحجب الكثيفة. ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (١).

والذى أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة من الضلال حتى ذهبوا إلى فهم الموت على أنه انطفاء الحرارة وتحلل الرطوبات وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هى إلا الأرحام تدفع وأرض تبلع.

الذى أوقعهم فى هذا الضلال: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وطلبوا المحسوس فى غير المحسوس سقط خلفه يعم عن المحسوس كغشاء عين الخفافيش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس:

قل لهؤلاء الماديين الحسيين: وهل نحن أبصرنا قوانين الكون، وهل وقعت أجزاؤه تحت حسنا، هل رأت أبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء؟

هل أدركنا حقيقة المغناطيسية أو الجاذبية أو الضوء أو الأثير؟
هل وقعت أيدينا على هذه الحقائق الماثلة فى هذا الكون الرحيب؟
فإذا كنا لم ندرك حقيقتها . . فكيف تصل عقولنا إلى أن نكيف

(١) سورة ق الآية ٢٢.

عالم البرزخ، وهو محيط أعنف من أن يعجز عبا به سباح ماهر .
إن إدراك عالم البرزخ: ليس مجاله الحسن كما أن العقل يقف
واجهًا أمام بحاره .
إنما طريقه: الوحي المعصوم .

فإن الموت أمر متعلق بالروح، قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح
قل الروح من أمر ربي .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾^(١) .

تعلقات الروح بالبدن

اعلم . وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن:

التعلق الأول:

تعلقها به في عالم الأرحام: فبعد أن مضت مدة النطفة فالعلقة،
فالمضغة: نفخ الله فينا الأرواح . . . قال تبارك اسمه: ﴿ذلك عالم الغيب
والشهادة العزيز الرحيم. الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان
من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من
روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون﴾^(٢) .

التعلق الثانى:

تعلقها بالبدن فى هذه الدنيا حيث تقوم ببث الحياة فينصرف البدن
ويباشر أعباء الحياة قال تبارك اسمه: ﴿ثم أنشأناه خلقًا آخر ... فتبارك الله
أحسن الخالقين﴾^(٣) .

التعلق الثالث:

تعلقها بالبدن عند النوم فإنها وقتذاك يكون لها مباشرة من وجه
خاص . . قال جل شأنه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت

(٢) سورة السجدة الآيات [٩:٦] .

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

فى منامها فىمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»^(١).
التعلق الرابع:

تعلقها بالبدن بعد الموت فى عالم البرزخ.. قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحًا فيما تركت.. كلا.. إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(٢).
التعلق الخامس:

تعلقها به يوم القيامة بعد البعث.. قال جل جلاله: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرقَت الأرض بنور ربها﴾^(٣).
وقال عز من قائل: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾^(٤).

ملاحظة جديرة بالاعتبار

من تأمل التعلقات السابقة: يلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل أوسع أفقًا وأرحب منزلة عما قبلها.
ولذا قيل: إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة: كخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا:
فتعلق الروح بالجنين فى الرحم مكان ضيق، وتعلقها به فى الدنيا حال اليقظة مكان أوسع، وتعلقها به فى المنام أرحب وأوسع حيث تنتقل الروح فى أرجاء الكون.
والموت أوسع وأوسع:
فقد جاء فى الحديث: «لتموتن كما تنامون».
ولأن الموت تخلص من ظلمة المادة مما يعطى الروح رحابة أفق.
وتعلقها به بعد البعث: أشد رحابة وأوسع أفقًا.

(١) سورة الزمر الآية ٤٢. (٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(٣) سورة الزمر الآيتان [٦٨ ، ٦٩]. (٤) سورة المؤمنون الآيتان [١٥ ، ١٦].

قال تعالى: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾^(١).

نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يقول فيهم: ﴿فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين﴾^(٢).

﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.. ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾^(٣).

وصلّى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين واحشرنا فى زمرةهم يا رب العالمين . آمين .

فصل

المراقبة والمحاسبة

اعلموا أيها العقلاء أنكم غداً بين يدي الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فالיום عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .
غداً توفى النفوس ما كسبت

ويحصد الزارعون ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم

وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قيل لتقى الدين الحسن البصرى -رضى الله عنه-: أى الأيام عندك عيد فقال: كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى

تقلب عرياناً ولو كان كاسياً

(٢) سورة ق الآية ٢٢ . (٢) سورة الواقعة الآيات [٨٨ : ٩١] .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

وخير لباس المرء طاعة ربه

ولا خير فيمن كان لله عاصيا

كان فاروق هذه الأمة -رضى الله عنه- إذا أخذ مضجعه لينام كان يردد هذا النشيد المصحوب بالتشجيع: كان يسأل نفسه هذا السؤال: ماذا تقول لربك غداً يا عمر؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله وكنت ضعيفاً فرفعك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله، فماذا تقول لربك غداً؟ فهذا الفاروق يحاسب نفسه وهو الذى كان يقول: لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر؟ وكان يقول رحم الله امرأاً أهدى إلى عيوبي وكان يقول لأهله: اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحمه وكان يخاف من الله خوف من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده وكأنه يقول: لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد.

وكان يقول: والله ما قبلت الخلافة إلا كما يقبلها المضطر أكل الميتة وإن مثلى وأمة محمد كمثل الوصى على مال اليتيم إن وجد استغنى وإن لم يجد أكل بالمعروف يرحمك الله يا أمير المؤمنين.

يا رافع راية الشورى وحارسها

جزاك ربك خيراً عن محبيها

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به

رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها

إن جاع فى شدة قوم شاركتهم

فى الجوع أو تنجلى عنها غواشيها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته

فى الزهد منزلة سبحان موليا

فمن يبارى أبا حفص وسيرته

أو من يحاول للفاروق تشبيها

يوم اشتتت زوجته الحلوى فقال لها

من أين لى ثمن الحلوى فأشريها

مازاد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومي لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
هذا هو أمير المؤمنين فانظروا كيف يحاسب نفسه واعجبوا كيف
يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؟ .
فما للعيون أصبحت لا تدمع وما للأذان أصبحت لا تسمع وما
للقلوب أصبحت لا تخشع وما للأبدان أصبحت لا تسجد ولا تركع .
عجبت لمن يؤمن بالقدر ثم هو يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق
ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت ثم هو يفرح ، ثم يؤمن بالنار
ثم هو يضحك ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل ،
وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن لها .
يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي -رضى الله عنه- فى كتاب
الإحياء:

وفى كتاب المراقبة والمحاسبة ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على كل جارية
بما اجتاحت ، المطلع على ضمائر القلوب إذا هى هجست ، الحسيب على
خواطير عباده إذا اختلجت الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى
السموات والأرض تحركت أو سكنت ، المحاسب على النقيير والقطمير
والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضل بقبول طاعات العباد
وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت ، وإنما يحاسبهم
لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا
لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت
وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت

وخسرت، فسبحان من عمت نعمه كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة، وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تغيرت الجوارح بالعبارات وتأدبت وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فممه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد فقد قال الله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾^(٥).

وقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه﴾^(٦).

وقال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾^(٧).

فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد

(١) سورة الأنبياء الآية ٤٧ . (٢) سورة الكهف الآية ٤٩ .

(٣) سورة المجادلة الآية ٦ . (٤) سورة الزلزلة الآيات [٦ : ٨] .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٦١ . (٦) سورة آل عمران الآية ٢٠ .

(٧) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .

وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمشاquil الذر من الخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف فى القيامة حسابه وحضر عن السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرتة وطالت فى عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا﴾^(١).

فربطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضليتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعده مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق.

(المقام الأول من المرابطة والمشارطة)

اعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشترين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العاقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس، لأن بذلك فلاحها قال تعالى ﴿قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾^(٢).

وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكياها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يعاجبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانيًا ويحاسبه ثالثًا ويعاقبه

(١) سورة النساء الآية ٢٠٠. (٢) سورة الليل الآيتان [٩ : ١٠].

أو يعاتبه رابعاً، فكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيورها إلى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل:

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا
فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن
محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها
وحظواتها، فإن النفس من أنفاس العمر كجوهرة نفيسة لا عوض لها
يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقضاء
هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم
هائل لا تسمح به نفس عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح
ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس كما أن التاجر عند تسليم
البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول: للنفس ما لى
بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة
وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنا فى أجلى، وأنعم
علىّ به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً حتى
أعمل فيه صالحاً فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن

تضيعى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة يفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فينال من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بالم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ننتها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فينال من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوء وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير، وهكذا الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن والحسرة لا يطاق وإن كان دون من النار وقد قال بعضهم: هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين .

أشار به إلى الغبن والحسرة وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾^(١). فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة، وهى: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء

(١) سورة التغابن الآية ٩ .

فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو لا سيما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجنائته عظيمة بالغيب والكذب والنميمة وتزكية النفس ومذمة الخلق والأطعمة واللعن والدعاء على الأعداء والمماراة في الكلام وغير ذلك. فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر ونظره عبرة وصمته فكرة ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾^(١).

وأما البطن فيكلفه ترك الشر وتقليل الأكل من الحلال، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها، وهكذا يشترط عليه في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعتها ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشاركة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم

(١) سورة ق الآية ١٨.

جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه فى ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرهما مغبة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد الأبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة على الطاعات مستعصية على العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها. ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾^(١). فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام الرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير.

قال تعالى: ﴿واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾^(٢). وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان يسمى محاسبة فالنظر فيما بين يدي العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن ضربتم فى سبيل الله فتبينوا﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾^(٤). وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾^(٥). ذكر ذلك تحذيراً وتنبهًا للاحتراز منه فى المستقبل . . .

وروى عبادة بن الصمات أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل سألته أن يوصيه ويعظه «إذا أردت أمرًا فتدبر عاقبته فإن كان رشدًا فأمضه وإن كان غيًا فأنته عنه».

وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالبًا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة وقال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

(١) سورة الداريات الآية ٥٥ . (٢) سورة البقرة الآية ٢٣٥ .

(٣) سورة النساء الآية ٩٤ . (٤) سورة الحجرات الآية ٦ .

(٥) سورة ق الآية ١٦ .

وروى شداد بن أوس عنه عليه السلام أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».

ودان نفسه: أى حاسبها ويوم الدين: يوم الحساب.
وقوله أئنا لمدينون: أى لمحاسبون. وقال عمر -رضى الله عنه-:
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهيئوا للعرض الأكبر.

وكتب إلى أبى موسى الأشعري حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة. وقال لكعب كيف تجدها فى كتاب الله؟ قال: ويل لديان الأرض من ديان السماء، فعلاه بالدرة وقال إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال: من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها.

(المرابطة الثانية المراقبة)

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكائلة فإنها إن تركت طغت وفسدت ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها.

أما الفضيلة: فقد سأل جبريل -عليه السلام- الرسول عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه» وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وقد قال تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾^(١). وقال تعالى: ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾^(٢) وقال الله تعالى: ﴿إن الله عليكم رقيباً﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾^(٤).

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.

(٢) سورة العلق الآية ١٤.

(٣) سورة النساء الآية ١.

(٤) سورة الماعز الآيتان [٣٢ ، ٣٣].

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل. وقال عبد الواحد بن زيد: إذا كان سيدى رقيباً علىّ فلا أبالي بغيره». وقال أبو عثمان المغربي: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم. وقال ابن عطاء: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال الجريري: أمرنا هذا مبنى على أصلين أن تلزم نفسك المراقبة لله - عز وجل - ويكون العلم على ظاهرك قائماً. وقال أبو عثمان: قال لى أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك: فقال: لم أجد موضعاً لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ في كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تكرم.

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف - عليه السلام - قامت ففطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا تستحيين من مراقبة الملك الجبار. وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت: له ألا تستحي فقال: ممن أستحي؟ وما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مكوكبها؟

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر، فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه. وقال الجنيد: إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه

-عز وجل- وعن مالك بن دينار قال: جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له: ومن يسكنها؟ قال يقول الله -عز وجل- إنما يسكن عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي إني لأهم أن أعذب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب. وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالى. وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة. ويروى أن الله تعالى قال للملائكة: أنتم موكلون بالظاهر، وأنا الرقيب على الباطن.

وقال محمد بن علي الترمذي: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه. .
وقال سهل: لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان.

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(١). فقال معناه ذلك لمن راقب ربه -عز وجل- وحاسب نفسه وتزود لمعاده. وسئل ذو النون بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل
خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

(١) سورة البينة الآية ٨.

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب

وأن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظمي، فقال: لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجتأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحدز ممن يملك العقوبة، وقال فرقد السنجي إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى، وقال عبدالله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى مكة فغرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال: يا راعي بعني شاة من هذه الغنم، فقال: أنا مملوك، فقال: قل لسيدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

(بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها)

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه قمت احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال: إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتقائه إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أنه ظاهر البشرية للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً أعنى أنها خلعت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته، فرب علم لا شك فيه ولا يغلب على القلب كالعلم

بالموت ، فإذا استولت على القلب استعجزت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين : الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرًا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا تطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب ، أما الجوارح فإنها تتعطل على التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة لها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سعت السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه هما واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال له عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظر هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدام الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتمل القلب بهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فرماً يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبدالواحد بن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله من الخلق؟ فقال : ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبدالواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة فقال : موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا -عليهما السلام- أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له: لم فعلت هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جداراً، وحكى عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يرامون وواحد جالس بعيداً عنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله تعالى أشهى، فقلت: أنت وحدك، فقال: معي ربي وملكانى، فقلت: من سبعة من هؤلاء فقال: من عز الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشى وقال أكثر خلقت شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه فهو لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل الشبلى على ابن الحسين النوري وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له: من أين أخذت هذه المراقبة والسكون؟ فقال: سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأسى الحجر لا تتحرك لها شعرة، وقال أبو عبدالله بن خفيف: خرجت من مصر أريد الرملة للقاء ابن على الروذبارى، فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد: إنه فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعاً على حال المراقبة فلو نظرت إليها نظرة لعلك تستفيد منه فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شيء فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة، فسلمت عليهما فما أجابانى فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله ألا رددتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلى وقال: يا بن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير يا بن خفيف ما أقل شغلك حتى تفرغ إلى لقائنا قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان، فبقيت عندها حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى فلما كان وقت العصر قلت عطنى فرفع رأسه إلى وقال: يا بن خفيف نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة

أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شرباً فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى الحقهما أن يعطاني لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه، وقال: يابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيسته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم على يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجبون إلا بعد التثبت منه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن جلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء فيك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل، أما قبل العمل فليستظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو من هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وأنكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه

وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وإنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته وهذا التوقف على بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنه في الخبر أن ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول: لم. الثاني: كيف. الثالث: لمن.

ومعنى لم: أى لم فعلت هذا، أكان عليك أن تفعله لمولاك، أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقل له: كيف فعلت هذا؟ فإن لله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن؟ فإن سلم من هذا الشر. الديوان الثالث: وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له: لمن عملت الوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله فيكون أجرك على الله أو لمرآة خلق مثلك فخذ أجرك منه إن عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبدا لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى أما سمعتنى أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾^(١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾^(٢). ويحك أما سمعتنى أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٣) فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبيت ولا يحرك جفنا ولا أنملة إلا بعد التأمل وقد قال النبى ﷺ لمعاذ: «إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه». وقال الحسن: كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه.

(٢) سورة العنكبوت [الآية ١٧].

(١) سورة الأعراف [الآية ١٩٤].

(١) سورة الزمر [الآية ٣].

وقال الحسن : -رحمه الله تعالى- عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان (اتق الله عند همك إذا هممت)

وقال محمد بن على : إن المؤمن وقاف متآن يقف عند همه ليس كما طلب ليل .

فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأشرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه أبلى ولم يعرف ما يوافقه هواه وله يمين بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذا المراقبة، بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم، ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم؛ لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ومواضع الغرور فيستقى ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماتة، فتعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران .

فحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فتبقيه ويزجر القلب من الفكر فيه وعدلهم به فإن الخطوة الأولى فى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث العقل والفعل يورث البوار والمقت فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه، مبهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه

فيستضيء بنور علماء الدين وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد فقد أوصى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك من محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي» فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن استفاء أنوار القلوب حضرة الربوبية، فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقتيها وهي شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً في أحكام العلم أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات».

جمع بين الأمرين وهما مثلاً زمان حقاً فمن ليس له عقل وازع من الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات، ولذلك قال عليه السلام: «من قارف ذنباً فارق عقل لا يعود إليه أبداً» فما قدر العقل الضعيف الذي سعد آدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعمار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط بين الخلق في الخصومات الثائرة في اتباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر.

(أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت)

ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر

(١) سورة الإسراء الآية ٣٦.

وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم، فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعًا لهواه معجبًا برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ﷺ إذا قال: (فإذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك).

وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾^(١).

وقوله عليه السلام: (إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث). وأراد به ظنًا بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق -رضي الله عنه- (اللهم أرني الحق حقًا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً على فاتبع الهوى).

وقال عيسى عليه السلام: (الأمر ثلاثة أمر استبان رشده فاتبعه، وأمر استبان غيه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه). وقد كان من دعاء النبي ﷺ:

(اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدنيا بغير علم).

فأعظم نعمة على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتناناً على عبده: ﴿وكان فضل الله عليك عظيماً﴾^(٢) - وأراد به العلم وقال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(٣). ﴿إن علينا للهدى﴾^(٤).

وقال تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾^(٥).

وقال: ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾^(٦).

(١) سورة لآسراء الآية [٣٦]. (٢) سورة النساء الآية ١١٣.

(٣) سورة الأنبياء الآية ٧. (٤) سورة الليل الآية ٧.

(٥) سورة القيامة الآية ٦. (٦) سورة النحل الآية ٩.

وقال على -كرم الله وجهه-: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصديق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعرفك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العمر التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك.

وإن كنت جازعاً على ما أصيب بما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان قائماً الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما حلقت وشغلك لأخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضاً من نقل هذه الكلمات قوله، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشيء من علمه وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا».

وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

النظر الثالث: للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية فى إتمامه، ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكن وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع

ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب .
فإن كان قاعدًا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ : «خير
المجالس ما استقبل به القبلة» .

ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع
عليه ، قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- : جلست مرة متربعا فسمعت
هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ، فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان
ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها
في مواضعها فكل ذلك داخل المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة
فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في
مباح فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها
عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء
والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب .

ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة
أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها .
وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله
تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له
على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام
المراقبة .

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة
فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل
الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو
مبغون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته
كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(١) .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة
مضت لا تعب فيها على العبد .

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .

كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى فى حقه منها كما استوفى من الأول ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون فى وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر -رضى الله عنه- من قوله عليه السلام.

(لا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرقة لمعاش، أو لذة فى غير محرم).

وما روى عنه أيضاً فى معناه (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرّب).

فإن هذه الساعة عوناً على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرّب لا ينبغي أن يخلو عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله فيلاقيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل مركز من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر، وهذا مقام ذوى الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية.

ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون فى الصفة الصانع ويترقون بها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك

سببًا لتذكر أبواب من الفكر تتفتح عليهم بسببه ، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحيين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيعه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله - عز وجل - فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إذا فتحت له أبواب الملكوت ، وذلك عزيز جدًا .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملة ويذجون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى .
وإن من ذم شيئًا خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » .

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها
أما الفضيلة فقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر -رضي الله تعالى عنه- : حاسبوا أنفسكم قبل أن تمسبوا وزنها قبل أن توزنوا وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني ، فقال : استوصت أنت ، فقال : نعم ، قال : إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشد فأمضه وإن كان غيًا فأنته عنه» وفي الخبر ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي ﷺ : «إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» .
وقال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(٣) .

(٢) سورة النور الآية ٣١ .

(١) سورة الحشر الآية ١٨ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .

وعن عمر -رضي الله عنه- إنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنة الليل ويقول لنفسه: ماذا فعلت اليوم، وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وروى عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أن أبا بكر -رضوان الله عليه- قال لها عن الموت:

ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال، فقال: لا أحد أعز عليّ من عمر فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبي طلحة حيث شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندمًا ورجاء للعوض مما فاتته.

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقبل له: يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة.

فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول: والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل، ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا والله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يومًا وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطًا فسمعتة يقول وبينى وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك وقال الحسن في قوله تعالى:

﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾^(١) قال: لا يلقي المؤمن إلا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه، وقال مالك بن دينار - رحمه الله تعالى - رحم الله عبداً قال لنفسه: أأست صاحبة كذا، أأست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائداً وهذا من معاتبة النفس كما سيأتى فى موضعه وقال ميمون بن مهران:

التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح
وقال إبراهيم التيمي:

مثلت نفسى فى الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسى فى النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغللها فقلت لنفسى: يا نفس أى شىء تريدن فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً، قلت: فأنت فى الأمانة فاعمل، وقال مالك بن دينار:

سمعت الحجاج يخطب وهو يقول:

رحم الله امرءاً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرءاً أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءاً نظر فى مكياله، رحم الله امرءاً نظر فى ميزانه فما زال يقول حتى أبكاني.

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصحبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجرى إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب

سورة القيامة الآية (٢).

فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصًا منهم على الدنيا وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أيامًا قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به جلب الشقاوة والسعادة أبد الآباد ما هذه المأصلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك، ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليثبت له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل .

فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربخه النوافل والفضائل، ونخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جليلة النهار ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ورغبها في مثلها وإن فوتها من أجلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجيران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الجنيه والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يعثر في شيء منها فينبغي أن يتقى غيبة النفس ومكرها فإنها خداعة ملبسة مكاراة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طوال نهاره وليتكفل بنفسه من الحساب ما لا سيتولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكونه لم سكن؟

فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصلح عنده قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبًا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه .

كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها يرد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن

شئ من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي عن الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً وساعة ساعة .
فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما نقل عن توبة بن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هى واحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى، فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ولو رمى العبد بكل معصية حجراً فى داره لامتلات داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره ولكن يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

المرابطة الرابعة

فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير فى حق الله تعالى فلا ينبغى أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها وكان ذلك سبب هلاكها، بل ينبغى أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته، هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة .

فقد روى عن منصور بن إبراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذه ثم ندم فوضع يده على النار حتى يپست .

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل يتعبد فى صومعته فمكث كذلك زمناً طويلاً فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فافتتن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بسابقة فقال: ما هذا الذى أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فندم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجلى خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسقطت فشكر الله له ذلك، وأنزل فى بعض كتبه ذكره، ويحكى عن الجنيد قال: سمعت ابن الكريبى يقول: أصابتنى ليلة جنابة فأصبحت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت فى نفسى تأخراً وتقصيراً فحدثت نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أقرأ أو أدخل الحمام ولا أشق على نفسى فقلت وا عجباه أنا أعامل الله فى طول عمرى، فيجب له على حق فلا أجد فى المسارعة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها فى الشمس.

ويحكى أن غذوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما فتكشفت جارية فنظر إليها غذوان فرفع يده فلطم عينيه حتى بقرت وقال: إنك بلحظة إلى ما يضرك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طوال حياته فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش.

ويحكى أن حسان بن سنان مر بغرفة فقال: متى بنيت هذه، ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها.

وقال مالك بن ضغيم: جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر فقلنا: إنه نائم.

فقال: نوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟

ثم ولى منصرباً فأتبعناه رسولاً وقلنا له : ألا نوقظه لك فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة أفكان هذا عليك ينام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم تتكلمين بما لا تعلمين ، أما إن الله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سواء لك أما تستحين كم توبخين وعن غيك لا تتتهين .

قال : وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته .

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتعبد فقام سنة لم ينم فيها عقوبة الذى صنع . وعن طلحة -رضى الله عنه قال :-

انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء فكان يقول لنفسه : ذوقى ونار جهنم أشد حرّاً أجيفة بالليل بطالة بالنهار فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فاتاه فقال : غلبتنى نفسى فقال له النبى ﷺ : ألم يكن لك بد من الذى صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيكم فجعل الرجل يقول له : يا فلان ادع لى يا فلان ادع لى فقال النبى ﷺ : عمهم فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى ﷺ يقول : اللهم سده ، فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأبهم .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع بنفسك فى شهواتها؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها ودخل بن السماك على داود الطائى حين مات وهو فى بيته على التراب فقال : يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب فالיום ترى ثواب ما كنت تعمل له .

وعن وهب بن منبه

أن رجلاً تعبد زمناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبّاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجة فلم يعطها فرجع إلى نفسه، وقال: منك أتيت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فنزل إليه ملك وقال: يا بن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك.

وقال عبدالله بن قيس: كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت، ألم أشهد مشهد كذا وكذا؟ فقلت لى: أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت: لأرفضه اليوم فرضته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل فوالله ما زال ذاك رآه حتى رأيته سريعاً فغددت به ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك، وأن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم؟

وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا.

وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد بن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح فقال له : لو أكلته بملح فقال : إن نفسى لتدعونى إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام فى الدنيا .

فهكذا كانت عقوبة أولى الخزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير فى أمر وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدو لك وأشد طغياناً عليك وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذى لا آخر له ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت وإن رآها تتوانى بحكم لكمل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغى أن يؤديها بثقل الأوراد عليها ويلزمها فنوتاً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حيث فاتته صلاة العصر فى جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة وأخر ليلة صلاة

المغرب حتى طلع كوكبًا فأعتق رقبتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة وكان بعضهم يجعل له على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها، فإن قلت إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فى سبيل معالجتها .

فأقول: سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة .

فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا، إلا أن هذا العلاج قد تعذر إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شئ أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهد وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أيامًا قلائل بشهوات مكدرة ثم يأتية الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد نعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضلهم ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد واقتداء بهم فقد قال رسول الله ﷺ: «رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى» .

قال الحسن: أجهدتهم العبادة قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ (١) قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر

سورة المؤمنون الآية ٦٠

ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ، وقال رسول الله ﷺ :
«طوبى لمن طال عمره وحسن عمله» . ويروى أن الله تعالى يقول
للملائكة : ما بال عبادى مجتهدين فيقولون : إلهنا خوفتم شيئاً فخافوه
وشوقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه ، فيقول الله تبارك وتعالى : فكيف لو
رأنى عبادى لكانوا أشد اجتهاد وقال الحسن : أدركت أقواماً وصحبت
طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على
شىء منها أدبر ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه
بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ولا أمر أهله
بصنعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط وأدركتهم عاملين
بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل قيام على أطرافهم يفتershون
وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم إذا
عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكر وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا
السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم والله مازالوا كذلك ، وعلى
ذلك ، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبدالعزيز يعودونه فى مرضه
وإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال عمر له : يا فتى ما الذى بلغ بك ما
أرى؟ فقال : يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض ، فقال : سألتك بالله ألا
صدقتنى ، فقال : يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر
عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها وكأنى أنظر إلى
عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظلمات لذلك نهارى
وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه من جنب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو نعيم: كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز فقيل له في ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يومًا فقال: إن في سقف بيتك جزءًا مكسورًا فقال: يا بن أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام.

وقال محمد بن عبدالعزيز: جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمينه ولا يساره فقيل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة.

وقالت امرأة مسروق: ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه متفختان من طول الصلاة وقالت: والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له.

وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام يتقون أطيب الكلام كما نتقى أطيب الثمر، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفى فكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله -عز وجل- لم يأمر بك كل هذا، فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به، وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالسًا ألفا ركعة فإذا صلى العصر احتبس ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك؟

عجبت للخلیقة کیف أنست بسواك، بل عجبت للخلیقة کیف استنارت قلوبها بذكر سواك وكان ثابت البنان قد حبت إليه الصلاة فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن یصلی لك فی قبره فائذن لی أن أصلى فی قبری.

وقال الجنید:

ما رأیت أعبد من السرى أتت علیه ثمان وتسعون سنة ما رئی مضجعاً إلا فی علة الموت.

وقال الحارث بن سعد:

مر قوم براهب فرأوا ما یصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فی ذلك، فقال: وما هذا عندما یراد بالخلق من ملاقة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ونسوا حظهم الأكبر من ربهم فبکی القوم عن آخرهم.

وعن ابن محمد المغازلی قال: جاور أبو محمد الجریری بمكة سنة فلم ینم ولم یتكلم ولم یستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم یمد رجلیه فعبّر علیه أبو بكر الكسائی فسلم علیه وقال له: یا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال: على صدق باطنی فأعاننی على ظاهری فأطرق الكسائی ومشى مفكراً.

وعن بعضهم قال: دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه بیكى حتى رأیت الدموع تنحدر من بین أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد خالطها صفرة، فقلت: ولم بالله یا فتح بکیت الدم فقال: لولا إنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك.

نعم بكيت دمًا فقلت له: على ماذا بكيت الدموع فقال: على تخلفى عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صلحت لى الدموع قال: فرأيتته بعد موته فى المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ قال: غفر لى قلت له: فماذا صنع فى دموعك فقال: قربنى ربى -عز وجل- وقال لى: يا فتح الدموع على ماذا، قلت: يا رب على تخلفى عن واجب حقك، فقال: والدم على ماذا؟ قلت: على دموعى أن لا تصلح لى فقال لى: يا فتح ما أردت بهذا كله، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة وقيل: إن قومًا أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فانتبهوا إلى راهب منفرد بين الناس فنادوه فأشرف عليهم صومعة فقالوا: يا راهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعلم القوم ما أراد فقالوا: يا راهب إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟

فقال: سلوا ولا تكثروا فلن النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث.

فعجب القوم من كلامه فقالوا: يا راهب علام الخلق غدا عند مليكهم فقال: على نياتهم فقالوا: أوصنا. فقال: تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته.

وقال عبد الواحد بن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبنى فناديته الثانية فلم يجبنى فناديته الثالثة فأشرف على وقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله فى

سمائه وعظمه فى كبريائه وصبر علىّ بلائه ورضى بقضائه وحمده على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر فى حسابه وعقابه فنهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وأما أنا فكلب عقور حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم فقلت: يا راهب فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه؟

فقال: يا أخى لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها، لأنها محل المعاصى والذنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله من ذنبه، وأقبل على ما يقربه من ربه.

وقيل لداود الطائى: لو سرحت لحيتك فقال: إني إذن لفارغ وكان أويس القرنى يقول: هذه ليلة الركوع فيحى الليل كله فى ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود.

وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتنهأ بالطعام والشراب فقالت له أمه: لو رفقت بنفسك قال: الرفق أجلبنى دعينى أتعب قليلاً وأتنعّم طويلاً، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً.

وقال سفيان الثورى: عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الممات يحمد القوم التقى.

وقال عبد الله بن داود: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه: قومى يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان يبكى ويقول: ذهب نصف عملى. وكانت ابنة

الربيع بن خيثم تقول له: يا أبت ما لى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام، فيقول: يا ابتاه إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقي الربيع من البكاء والسهرة نادته يا بنى لعلك قتلت قتيلاً، قال: نعم يا أماء قالت: فمن هو حتى تطلب أهله فيعفوا عنك فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك فيقول: يا أماء هي نفسى.

وعن عمر بن أخت بشر بن الحرث قال: سمعت خالى بشر بن الحرث يقول لأمى: يا أختى جوفى وخواصرى تضرب على فقالت له: أما يا أختى تأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك فقال لها: ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري أيش أقول فبكت أمه وبكى معها وبكى معهم. قال عمر ورأت أمى ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمى: يا أختى ليت أمك لم تلدنى فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا: فليت أمى لم تلدنى وإذ ولدتنى لم يدر ثديها على.

قال عمر: وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار وقال الربيع: مكانه حتى صلى الظهر ثم قال: إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فغلبته عيناه فقال: اللهم إنى أعوذ بك يا أبا عبدالله مالى أراك كأنك مريض فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضاً يطعم المريض وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما وقال رجل من النساء أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه

بعباءة ثم رمى نفسه فلم ينقلب من جنب إلى فقلت له: رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء، فقالت: كنت الية كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم.

وقال ثابت البناني: أدركت رجلا كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا، وقيل: مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل: كان يقرأ، ﴿قل هو الله أحد﴾^(١) إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى، وكان منصور بن المعتمر إذا رأيته قلت: رجل أصيب بمصيبة منكر الطرف منخفض الصوت طب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ما هذا الذى تصنع بنفسك تبكى الليل عامته لا تسكت لعلك يا بنى أصبت نفسا لعلك قتلت قتيلا؟

فيقول: يا أماه أنا أعلم بما صنعت نفسى، وقيل لعامر بن عبدالله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر، فقال: هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبها، ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حر النار النوم فما ينام حتى إذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال: من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى. وقال بعضهم:

(١) سورة الإخلاص الآية (١).

صحبته عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام الليل ولا النهار. ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: صليت خلف علي -رضي الله تعالى عنه- الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأرحفن بك حتى يكون الكلل منك لا مني فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتي، وكان يقول: أیظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا دوننا كلا والله لنزاحمهم عليه رحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلقوا وراءهم رجلاً.

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وإنه مات وهو ساجد وإنه كان يقول: اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي.

وقال القاسم بن محمد غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت عائشة -رضي الله عنها- أسلم عليها فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة

الضحى، وهى تقرأ ﴿فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم﴾^(١) وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهى كما هى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكي وتدعو. وقال محمد بن إسحاق: لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء. وقال بعضهم:

ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بينى وبين قيام الليل. وقال على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- سمات الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العيون من البكاء وذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين. . . وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره، وكان عامر بن عبد القيس يقول: إلهى خلقتنى ولم تؤامرنى وتميتنى ولا تعلمنى وخلقت معى عدواً وجعلته يجرى منى مجرى الدم وجعلته يرانى ولا أراه ثم قلت لى استمسك، إلهى كيف أستمسك وفى الدنيا الهموم والأحزان وفى الآخرة العقاب والحساب فأين الراحة والفرج، وقال جعفر بن محمد: كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد: فحدثت به بعض البصريين فقال: لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين

(١) سورة الطور الآية ٢٧.

الصيحتين حتى صاح . وعنهم القاسم بن راشد الشيباني قال : كان دمه نارلاً عندنا بالمحصب . وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلا تقومون فترحلون فيواثبون فيسمع من ههنا داع ومن ههنا قارئ ومن ههنا متوضئ فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عبادةً أنعم عليهم فعرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين وبيوتاً للحكمة وتوايت للفطنة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تحول في الملكوت وتلوذ محجوب الغيوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالديباج حسناوهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذا هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تحييه لها دوى عال فاتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .. إلى قوله تعالى : ويحذركم الله نفسه﴾^(١) قال : فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه فقلت وا أسفاه هذا لشقائى ثم انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعتة وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠ .

بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض الغافلين ثم قال: خشعت
قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب
العارفين ثم نفض يده فقال: ما لى وللدنيا وما للدنيا ولى عليك يا دنيا
بأبناء جنسك وإلا فى نعيمك إلى محبيك فاذهبى وإياهم فاخذعى ثم
قال: أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون وعلى
الزمان يفنون فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال:
وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه؟ أم
كيف يفرغ من ذهبت أيامه وبقيت أثامه؟ ثم قال: أنت لها ولكل شدة
أتوقع نزولها ثم لها عنى ساعة وقرأ ﴿وبد الهم من الله ما لم يكونوا
يحتسبون﴾^(١) ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى وخر مغشياً عليه
فقلت: قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو
يقول: من أنا، ما خاطرى، هى لى أساءت من فضلك وجللنى بستر
واعف عن ذنوبى بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت له: بالذى
ترجوه لنفسك وتثق به ألا كلمتنى فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه
ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنى فى هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس
ويجاهدنى فلم يجد عوناً على ليخرجنى مما أنا فيه غيرك فأليك عنى يا
مخدوع فقد عطلت على لسانى وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى وأنا
أعوذ بالله من شرك ثم أرجو أن يعيننى من سخطه ويتفضل على برحمته
قال: فقلت: هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا
فانصرفت وتركته، وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير فى مسير لى إذ
ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لى: يا

(١) سورة الزمر الآية ٤٧ .

هذا قم فإن الموت لم يميت ثم هام على وجهه فاتبعته فسمعتة وهو يقول كل نفس ذائقة الموت اللهم بارك لى فى الموت فقلت: وفيما بعد الموت فقال: من أيقن بما بعد الموت شد مئذر الحذر ولم يكن ثم فى الدنيا مستقر له قال: يا من لوجهه عنت الوجوه بيض وجهى بالنظر إليك واملاً قلبى من المحبة لك وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك فقد آن لى الحياء منك وحان لى الرجوع من الإعراض عنك ثم قال: لولا حلمك لم يسعنى أجلى ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ثم مضى وتركنى وقد أنشدوا فى هذا المعنى:

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد	تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاصر فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فإن هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغثنى يا عمادى
فأنت بما ألقىه عليهم	كثير الصفح عن ذلل العباد

وقيل أيضاً:

ألد من التلذذ بالغوانى	إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال	يسيح إلى مكان من مكان
لتحمل ذكره ويعيش فردا	ونظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ول	وذكر بالفوائد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير	يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنى	من الراحة فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة فقليل له: قد أجهدت نفسك فقال: كم

عمر الدنيا؟ فقل سبعة آلاف سنة، فقال: كم مقدار يوم القيامة؟ فقل: خمسون ألف سنة، فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعنى إنك لو عشت عمر الدنيا واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لما كان ربحك كثيرا وكنت بالرغبة فيه جدير فكيف وعمرك قصير والآخرة لا نهاية لها فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمرت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أفجع فى القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والكون فى زمرتهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذو البصائر فى الدنيا وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترضى لها أن تنخرط فى سلك الحمقى وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس ألا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة فاحسى برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها، ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات.

فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت: إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت الملوك أبوابها وخلأ كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهى هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنا أم

رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتني وعزتك لو
انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع على نفسي من وجودك وكرمك .

ويروى عن عفرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا
كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى
الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فيك يا إلهى أسألك لا
بغيرك أن تجعلني فى أول زمرة السابقين وأن ترفعني لديك فى عليين من
درجة المقربين وأن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم
العظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وصية ثم لا
تزال تدعو وتبكي إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما
تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لى لو أتيناها إذ خلت فأمرناها
بالرفق بنفسها فقال: أنت وذاك قال: فأتيناها فقلت لها: لو رفقت
بنفسك واقتصرت من هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريد
قال: فبكيت ثم قالت: والله لوددت أن أبكى حتى تنفد دموعى ثم أبكى
دماً حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى وأنى لى بالبكاء
فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء حتى غشى عليها .

وقال محمد بن معاذ: حدثتني امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى
منامى كأنى دخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت: ما شأن
أهل الجنة قيام فقال لى قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى
رخرفت شعوانة الجنان لقدومها فقلت: ومن هذه المرأة فقيل: أمة سوداء
من أهل الأيكة يقال لها شعوانة قالت: فقلت: أختى والله قالت فبينما

أنا كذلك إذ أقبل بها على نجية تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت يا أختى أما ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فالحقنى بك قالت: فتبسمت إلى وقالت: لم يأن لقدومك ولكن أحفظى عنى اثنتين: ألزمنى الحزن من قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى وقال عبدالله بن الحسن: كانت له جارية رومية، وكنت بها معجباً فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقامت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول: بحبك لى إلا ما غفرت لى ذنوبى فقلت لها: لا تقولى بحبك لى ولكن قولى: بحبى لك، فقالت: يا مولاي بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه نيام.

وقال أبو هاشم القرشى: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال: فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً فقلت يوماً لخادم لى: أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع؟ قال: فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهى مستقبلة القبلة تقول: خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها، وأنت عليم خبير وأنت على كل شىء قدير.

وقال ذو التون المصرى: خرجت ليلة من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل علىّ وهو يقول ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾^(١). ويبكى فلما قرب منى السواد إذا هى امرأة عليها جبة

(١) سورة الزمر الآية ٤٧.

صوف ويبيدها ركوة فقالت لى: من أنت غير فزعة منى؟ فقلت: رجل غريب فقالت: يا هذا وهل يوجد مع الله غربة؟ قال: فبكيت لقولها لى فقالت لى: ما الذى أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت: فإن كنت صادقاً فلم بكيت؟ قلت: يرحمك الله، والصادق لا يبكى قالت: لا، قلت: ولم ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجباً من قولها.

وقال أحمد بن على: استأذنا على عفرة، فحجبتنا فلارمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول: اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها: يا أمة الله ادعى لنا فقالت: جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة، ثم قالت لنا: مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فخانت منه نظرة فخر مغشياً عليه فأصابه فتق فى بطنه فيا ليت عفرة إذا رفعت رأسها لم تعصى ويا ليتها إذا عصت لم تعد.

وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها فى موضع بناحية السوق وذهبت فى بعض حوائجى وقلت: لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال: فأنصرفت فلم أجدها فى الموضع فأنصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت: يا مولاي لا تعجل على إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرة فقالت: ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما.

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها : بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها : انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعزلها فى كثرة البكاء قال : فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت؟ قالت أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها : كم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناك منه فقالت : إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منها فى الدنيا، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدها بكاء أطول من هذا ثم أعرضت قال : فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح .

وقال أبو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت : جزاؤه أن تصوم له غداً .

وكانت شعوانة تقول فى دعائها : إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى

فى النظر لها وبقي لها حسن نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها، إلهى
إنك لم تزل بى برّاً أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ولقد رجوت
ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعبنى عند مماتى بغفرانه، إلهى كيف
أياس من حسن نظرك بعد مماتى ولم تولنى إلا الجميل فى حياتى، إلهى
إن كانت ذنوبى قد أخافتنى فإن مجيئى لك قد أجارته فتول من أمرى ما
أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله، إلهى لو أردت إهانتى لما
هديتنى ولو أردت فضيحتى لم تسترنى فمتعنى بما له هديتى وأدم لى ما
به سترتنى إلهى أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى، إلهى لولا ما
قرفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت
ثوابك.

وقال الخواص: دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى
أسودت، وبكت حتى عميت، وصلت حتى أقعدت وكانت تصلى قاعدة
فسلمنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر قال:
فشهقت، ثم قالت: علمى بنفسى فرح فؤادى وكلم كبدى والله لوددت
أن الله لم يخلقنى ولم أك شيئاً مذكوراً ثم أقبلت على صلاتها.

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال
الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن
تنظر إلى أهل عصرك فإنك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن
سبيل الله، وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر
وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب «حلية الأولياء» فهو
مشمئل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه

يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك، وقالت: إنما تيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم، فإن المصيبة إذا عمت طابت فإياك أن تسدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها وقل لها أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا أعلى مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم لحقيقة الحال وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم تركيني موافقتهم وتستجهلينيهم في صنيعهم وتأخذين حذرك مما دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق، وعذاب الغرق لا ينادى إلا ساعة فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شاغلي الالتفات إلى العموم والخصوص ولثم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾^(١) فعليك إذا اشتغلت بمعاتبه نفسك وحملها الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبها وتوبيخها وتقريعها وتعريفها سوء نظرها لنفسها لعلها تنزجر عن طغيانها.

(المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبها)

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أماراً بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣.

لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لارمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعزل والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك .

أوصى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يابن مريم عظم نفسك فإن اتعظت فعظم الناس وإلا فاستحى منى وقال تعالى : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ (١) .

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهوايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها : يا نفسى ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وجمعاً ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وإنك صائرة إلى إحداهما على القرب فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت .

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥ .

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿اقترِب
لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾، ما يأتيهم من ذكر من ربهم
محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم﴾^(١) ويحك يا نفس إن
كانت جرائتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك
وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك
ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه
كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه
وشديد عقابه أفقتين أنك تطقين عذابه هيهات هيهات جربى نفسك إن
ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسى ساعة فى الشمس أوفى بيت الحمام
أو قربى أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله
وفضله واستغناؤه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله
تعالى فى مهمات دنياك فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل فى دفعه
ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات
الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فمالك تنزعين الروح فى أجلها
وتحصيلها من وجه الحيل فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر
بك مع كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى
منك ولا طلب أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا وقد عرفت
أن سنة الله لا تعديل لها، وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس
للإنسان إلا ما سعى، ويحك يانفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة
فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك:
ومولاك: ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾^(٢) وقال فى أمر
الآخرة، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾^(٣) فقد تكفل لك بأمر الدنيا
خاصة وصرفك عن السعى فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على

(١) سورة الأنبياء [١ : ٣]. (٢) سورة هود الآية ٦.

(٣) سورة النجم.

طلبها تكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الأخرى إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار .

ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيئات . أتخسين أنك تتركين سدى ألم تكونى نطفة من منى يمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحى الموتى فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك أما تتفكرين أنه لماذا خلقتك من نطفة فقدرك ثم السيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبينه فى قوله ، ثم إذا شاء أنشرك فإن لم تكونى مكذبة فمالك لا تأخذين حذرک ولو أن يهودياً أخبرك فى الذ طعامك بأنه يضرك فأمرضك فصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع نقصان عقل وقصور علم ، والعجيب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقرباً لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان ، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ، أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقومها ومقامعها وصديدها وسمومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل ما هذه أفعال العقلاء ، بل لو انكشفت للبهايم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فمالك تسوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يختطفك من غير مهلة فيما إذا أمنت استعجال الأجل وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة

أفتظنين أن من يطعم الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها، إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك .

أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربية فأقام فيها سنين متعطلاً بطالاً يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أتفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه اعتماداً على كرم الله سبحانه وتعالى .

ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا .

فلعل اليوم آخر عمرك .

فلم لا تشتغلين فيه بذلك فإن أوصى إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟

أنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك وتقولين: غداً غداً فقد جاء الغد .

وصار يوماً فكيف وجدته أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم بالأمس بل تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى

فأخبرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة
ورسوخًا ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر
عليه قط في المشيب .

بل من العناية رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب الدين والقضيب
الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .
فإذا كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجليلة وتركنين إلى
التسويق .

فما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه حماقة ولعلك
تقولين ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرص على لذة الشهوات وقلة جرى
على الآلام والمشقات فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك إن كنت صادقة
في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصامتة عن الكدورات الدائمة أبد
الآباد ولا قطع في ذلك إلا في الجنة .

فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع
أكالات .

وما قولك في عقل مريض ، أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد
ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طوال عمره وأخبره إنه إن شرب ذلك مرض
مرضًا مزمنًا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء
حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال
خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام .

حتى يلزمه ألم المخالفة ثلثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمره
بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة . وعذاب أهل النار .

أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته وليت شعري ألم الصبر على الشهوات أعظم شدة وأطول مدة .

أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله ما أراك تتوبين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى أو لحرق جلى .

أما الكفر الخفى فهو شعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب وأما الحرق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراج واستغنائك عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعنها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذلك بجميع الحيل أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعنها من رسول الله ﷺ حيث قال : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى» .

ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة فإذا مضى فيك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنى الصحة قبل القسم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت .

واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد

من غير حية وليد وحطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أفئظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة عن زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناسبة .

فى الشدة والبرودة أفئظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى هيهات لما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجنة والنار .

وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى فى أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصن كما أن كرم الله تعالى فى دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك الطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والحبة فما يستغنى عنه خالقك ومولاك، وإنما تشتريه لنفسك .

إذ خلقه سببًا لاستراحتك فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها وإنما هى طريقك إلى نجاتك .

فمن أحسن فلفسه ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين ويحك يا نفس، انزعى عن جهلك وقيسى آخرتك بدنياك فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة .

وكما بدأنا أول خلق نعيده، وكما بدأكم تعودون، وسنة الله تعالى لا تجدين لها تبديلا ولا تحويلا .

ويحك يا نفس إذا ما ألفت الدنيا وأنست بها فعز عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكددين فى نفسك مودتها فاحسبى أنك غافلة

عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فما أنت مؤمنة بالموت المغرق .

بينك وبين محابك ، أفترين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمن بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه .

ثم يضطر لا محالة إلى مفارقتها أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى . أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك .

ومالك فيها إلا مجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ولذلك قال سيد البشر ﷺ إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وعش ما شئت فإنك ميت .

ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري .

أما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم .

أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ويبنون ما لا يسكنون ويؤجلون ما لا يدركون بين كل واحد قصراً وقوى إلى جهة السماء وقوة قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا .

يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً أما تستحين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم .

وأحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور وإنما تميلين
بالطبع إلى التشبه والافتداء فقيسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل
هؤلاء المنكبين على الدنيا.

واقتردى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى
نفسك العقل والذكاء.

يا نفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك، عجباً لك
كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يا نفس أسكرك
حب الجاه وأدهشك عن فهمها أو ما تتفكرين أن النجاة لا معنى لها إلا
ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسبى أن كل من على وجه الأرض
سجد لك وأطاعك أفما تعرفين إنه بعد خمسين سنة لا تبقي أنت ولا
أحد مما على الأرض سجد لك.

وسياتى زمان لا يبقىذكرك ولا ذكر منذكرك كما أن على الملوك
الذين كانوا من قبلك، ﴿فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم
ركزاً﴾^(١)، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من
خمسین سنة إن بقى هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض.

سلم لك الشرق والغرب حتى إذا عنت لك الرقاب وانتظمت لك
الأسباب كيف ويأتى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر
دارك فضلاً عن محلتك فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى
الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك.

فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها وتنزها عن كثرة عنائها
وتوقياً من سرعة فنائها فما لك لا تزهدين فى قليلها بعد أرهد فيك

(١) سورة مريم الآية ٩٨.

كثيرها وما لك تفرضين. بدنيا إن ساعدتك فلا تحلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس .

يسبقونك بها ويزيدون عليك فى نعيمها وزيتها فللدنيا يسبقك هؤلاء الأخساء فما أجهلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين فى جوار رب العالمين أبد الأبدين لتكونى فى صف النعال .

من جملة الحمقى الجاهلين أيامًا قلائل فى حيرة عليك، إن خسرت الدنيا والدين .

فبادرى ويحك يا نفس، فقد أشرفت على الهلاك واقترب الموت ورد النذير فمن ذا يصلى عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت .

ويحك يا نفس ما لك إلا أيام معدودة هى بضاعتك إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيك بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نقصك .

فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك، أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدهك والقبر بيتك والتراب فراشك والدود آتيك والقرع الأكبر بين يديك .

أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان المغلظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم، أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليستغلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت فى أمنيتهن ويوم من عمرك لو

بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لا شتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك
فى الغفلة والبطالة .

ويحك يا نفس، أما تستحين تزينين ظاهرِك للخلق، وتبارزين
الله فى السر بالعظام، أفستحين من الخلق، ولا تستحين من الخالق .
ويحك، أهو أهون الناظرين عليك أتامرين الناس بالخير وأنت
متلطفة بالردائل تدعين إلى الله وأنت فارة، وتذكرين بالله وأنت له
ناسية .

أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العذرة، وأن العذرة لا تطهر
غيرها فلم تطمعين فى تطهير غيرك وأنت غير طيبة فى نفسك .

ويحك يا نفس، لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما
يصيبهم بلاء إلا بشؤمك

ويحك يا نفس قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث
يريد ويسخر بك .

ومع هذا فتعجبين بعملك، وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً
برأس لكان الربح فى يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك
وذلك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة .

وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه، ويحك يا
نفس ما أقدرك، ويحك يا نفس ما أوقحك، ويحك يا نفس ما أجهلك .

وما أجرك على المعاصى، ويحك كم تعقدين فتقضين، ويحك كم
تعقدين فتعذرين، ويحك يا نفس أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك

كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جمعوا كثير
وبنوا مشيداً وأملوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم
غروراً، ويحك يا نفس أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنين أنهم
دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيهات هيهات ساء ما تتوهمين ما
أنت إلا فى هرم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابنى على وجه
الأرض قصرك فإن بطنها عن قليل يكون قبرك .

أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك
منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك
حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن .

أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس إنك مع
هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة
مالك .

ولا تحزنين بنقصان عمرك وما نفع مال يزيد وعمر ينقص ، ويحك
يا نفس ، تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهى
معرضة عنك .

فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يبلغه
فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك وأقاربك وجيرانك فترين تحسرهم عند
الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً إلى
الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن
عمله دقيقه وجليله سره وعلايته .

فانظرى يا نفس بأى بدن تقفين بين يدى الله وبأى لسان تحيين
وأعدى للسؤال جواباً وللجواب صواباً .

واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال وفى دار زوال لدار
مقام .

وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود اعملى قبل أن لا تعملى
اخرجى من الدنيا اختيار خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على
الاضطرار ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا .

فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر فويل لمن له الويل ثم لا
يشعر يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له فى كتاب
الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتباراً وسعيك
لها اضطراراً ورمقك لها اختياراً وطلبك للآخرة ابتداراً ولا تكونى ممن
يعجز عن شكر ما أوتى ويبتغى الزيادة فيما بقى وفيها الناس ولا ينتهى .
واعلمى يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد
خلف ومن كانت مطيته الليل والنهار .

فإنه يسار به وإن لم يسر فاتعظى يا نفس بهذه الموعظة واقبلى هذه
النصيحة فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار وما أراك بها راضية
ولا لهذه الموعظة واعية فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة
فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تذلل فبالمواظبة على القيام
فإن لم تذلل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تذلل فبصلة الأرحام واللفظ
بالأيتام، فإن لم تذلل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه وأنه
قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطنى نفسك على النار،
فقد خلق الله الجنة، وخلق لها أهلاً وخلق النار وخلق لها أهلاً، فكل
ميسر لما خلق له فلم يبق فيك مجال للوعظ .

فاقنطى من نفسك، والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك
فلا سبيل لك إلى القنوط ولا سبيل لك إلى الرجاء .

مع انسداد طرق الخير عليك . فإن ذلك اغترار وليس برجاء فانظري
الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها تسمح وهل
تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدمع
مع بحر الرحمة فقد بقى فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء
واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدمنى
الاستغاثة ولا تملئ طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك فإن
مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقت وتماديت قد طال وقد انقطعت
منك الحيل . وراحت عنك العلل .

فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا
إلا إلى مولاك .

فافزعي إليه بالتفرغ واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك
وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ويغيث الطالب المتلهف ويوجب
دعوة المضطر .

وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته محتاجة وقد ضاقت
بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجح فيك
العظات .

بهذا يكون هذا الكتاب قد تم بحمد الله وتوفيقه ، وفى هذا القدر
كفاية لمن وقف عن قول الله تعالى ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك
حسيباً﴾^(١).

(١) سورة الإسراء الآية ١٤ .

فهرس كتاب

الصفحة

٥	مقدمة الكتاب
٨	فصل . فيما يرقق القلب ويملؤه خشوعًا وخشيتة لله تعالى
١٠	فصل . إياك والجن وكن شجاعًا
١٣	واجب المسلمين
١٤	فصل . مرض الرسول ﷺ ووفاته
٢٣	دفن الرسول ﷺ
٢٧	زيارة القبور
٣٠	حكمة زيارة القبور
٣١	ما ينفع الميت من الأعمال
٣٢	ما ينفعه من أعمال غيره
٣٨	سؤال القبر
٤١	نصوص نبوية صحيحة
٤٨	أسباب عذاب القبر
٥١	فضل القرآن ومدارسته
٥٢	فضل القرآن ، وحافظ القرآن
٥٧	النجاة من عذاب القبر
٦٢	فضل ذكر الله
٦٤	مستقر الأرواح
٦٧	كلمة عن الروح
٦٩	ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت
٧٤	إستئناس الميت بالمشيعين لجنائزته
٧٦	تعلقات الروح بالبدن
٧٧	ملاحظة جديرة بالأعتبار
٧٨	فصل . المراقبة والمحاسبة

المكتبة التوفيقية

امام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت : ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠

To: www.al-mostafa.com